

تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الإسلامية
<http://islamicfiles.net>

صحابة غير مشهورين

مواقف ودروس



islamicFiles.Net



تأليف

أ/د. مبروك عطية

الأستاذ بجامعة الأزهر

الحمد لله الذي هدى إلى دينه الإسلام رجالاً صدقوا، والصلاة
والسلام على عبده ورسوله سيدنا محمد الذي ألف به قلوبهم فما اجتمعوا
وما افترقوا إلا على حبه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، ورضي
بسنته، إلى يوم الجمع لا ريب فيه، فريق في الجنة وفريق في النار قد
احترقوا.

وبعد،

فإن البحث في حياة الصحابة الأخيار عمل كريم، وجهد مفيد، وقد
أثرت أن أتناول بعضهم من الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وكلهم
على خير، إلا أن هؤلاء غير مشهورين عند كثير من الناس شهرة
الأعلام أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي و عبد الرحمن بن عوف
والزبير، فأردت أن يتعرف عليهم الناس، لا من خلال سيرة مطولة،
وإنما من خلال مواقف فيها الدرس والعبرة، رابطاً بين تلك المواقف
وبين حياتنا المعاصرة، التي هي بلا شك امتداد للزمن الذي عاشوا فيه،
وإن اختلفت ظروف الزمان والمكان لأن تلك المواقف معانٍ، والمعنى
حقه وشأنه أن يبقى مهما تغيرت الظروف

فأبو أمامة مثلاً ظل في خدمة أمه، وكان أولى بالبقاء معها من
خاله الذي هو أخوها، وهذا المعنى باق، وتلك أولوية باقية متى كان
الابن سوياً عدلاً، فإذا اختلف لم يعد أولى بها، ولا بغيرها .

وتلك سودة القرشية خطبها النبي - صلى الله عليه وسلم -
فاعترت، وقد أعلنت أنه أحب الناس إلى نفسها وقلبها، لكنها أم
لصبيان، وتخشى عليه من صياحهم صباح مساء، فكيف تؤثر رغبة هي
شرف الرغبات على حساب راحته، وحقه أن يكون على مستوى عال

رقم الإيداع

٢٠١٢/١١٤٦٩

التركي - للكمبيوتر والطباعة - طنطا

صدقة جارية علي روح المغفور لها بإذن الله - تعالى - ماجدة
فتحي عبد الجواد رضوان اللهم اغفر لها وارحمها واجعل هذا
العمل في ميزانها وتقبل ممن أنفق عليه من أجلها زوجها
الحاج كارم وأبناؤها ونسأل كل قارئ لهذا الكتاب أن يدعو لها .

من الراحة إذا تزوجها وهذا معنى ينبغي أن يبقى، ومثلها في زماننا مفقود، ويجب أن يعود، حتى لا نصنع من البحر طحينة وعسلاً وهو بحر ملح أجاج، تقول المرأة لخاطبها وعندها عيال: سوف يكونون بيني وبين أمي، أو سوف تقوم أمي بكفالتهم، أو سوف أجعلك لا تشعر بهم نهائياً، هذا شغلي ولا يهكم، فإن تزوجها، وارتفعت أصوات صياحهم فوق رأسه، فلم يستطع أن ينام وقال: أين شغلك؟ قالت: وماذا أفعل؟ إنهم لا يدركون، صغار لا يعرفون شيئاً. هل تطلب مني أن أكتفهم أنفاسهم، هل تود أن أخلص منهم، لقد فعلت جهدي، وبذلت ما في وسعي، وفعلت كذا وكذا، ولا فائدة، إن الصغار في حاجة إلى من يرحمهم، وكنت أظن أنك سوف تعتبرهم أطفالك وسوف تحنو عليهم، وترفق بهم، وعلى العموم إن كانوا يزعجونك، وينغصون عليك راحتك فلنفترق وهكذا نلتقي لنفترق. وننزوج لنطلق، ونفتتح مشروعات لنفشل، ونتكلم لنسيء ونخطئ، ونتعامل لنزداد بغضاً، ولو دققنا النظر، وأعدنا النظر فيما نحن مقبلون عليه قبل أن نقبل عليه لما كان ذلك الإحباط الذي أفسد علينا حياتنا .

وهذا عامر بن فهيرة - رضي الله عنه - يقول وقد ضربه عامر ابن الطفيل، فقال ورأسه يطير: فزت ورب الكعبة، فتعجب عامر بن الطفيل وقال: كيف فاز؟ ألم أقتله؟ قيل له: بلى، ولكنه فاز بالشهادة، فأسلم عامر بن الطفيل، وكان هذا الموقف سبباً في إسلامه لما رأى من حب عامر بن فهيرة الشهادة، ويقينه بأجرها، وهذا المعنى غال عزيز أن يكون على الطريق معلم من المعالم التي يتأسى بها أن نجد الدين عزيزاً غالباً عند أصحابه، وهذا خبيب بن عدي - رضي الله عنه - حين سأله الكفار قبل أن يقتلوه أحب أن محمداً مكانك؟ فقال: والله لا أحب أن تصيبه شوكة وأنا آمن في أهلي، فقال أبو سفيان وهو يومئذ على شركة: ما وجدت أحداً أحب أحداً كما أحب أصحاب محمد محمداً.

وهكذا سوف ترى في هذا الكتاب معالم على طريق التوحيد، والصبر، والصدق، واليقين، والحب والبر، في ضوء مواقف لهؤلاء الذين أحببت أن يعرف القارئ أسماؤهم، وأن يطلع على مواقفهم وأن يستضيء بها، لعل الله أن يضيء بها سبلنا وأن يهدينا إلى صراط مستقيم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته، وأخلص في حبه إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د. مبروك عطية

أستاذ ورئيس قسم اللغويات

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بجامعة الأزهر - والداعية الإسلامي

من فضلاء الصحابة، قالت عائشة: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحدٌ يعتد عليهم فضلاً، كلهم من بني عبد الأثهل سعد بن معاذ، وأسيّد بن حُضير، وعباد بن بشر، وروت- رضي الله عنها- أن النبي - صلى الله عليه وسلم- سمع صوت عباد بن بشر، فقال اللهم ارحم عبّاداً. رواه البخاري.

وكان عند رسول الله- صلى الله عليه وسلم- هو وأسيّد بن حُضير، وخرجا من عنده في ليلة مظلمة فأضاءت عصا أحدهما، فلما افترقا أضاءت عصا هذا، وعصا هذا .

كان في غزوة ذات الرقاع، وكان شريكه في حماية الجند عمار ابن ياسر، فقال له: تكفيني أول الليل أو آخره، فقال عمار: آخره، فنام عمار ووقف عباد يصلي فأصابه سهم وهو يقرأ القرآن فاستمر يتلو، فجاءه ثان، فاستمر، فلما جاءه ثالث فزع فصاح عمار: لم لم توقظني في أول سهم؟ فقال كنت أقرأ سورة وددت أن لا أقطعها حتى ينقضي نفسي، رضي الله عنه وأرضاه .

إنه رجل من رجال، تذوقوا حلاوة القرآن الكريم ووقفوا على قيمته التي تعلو، ولا يعلى عليها، وصاحب القرآن إذا علم أن غيره لم يؤت خيراً منه فقد عرف للقرآن قدره، وأدرك سره، ومن ظن أن غيره أوتي خيراً منه، فقد صغر القرآن، ووقع في محذور شديد، وكان على خطر عظيم، ولا يعنى هذا بالطبع ألا يبحث عن سبب من أسباب الحياة يبني به بيتاً، ويعيش به حياة طيبة؛ لأننا في كثير من الأحوال نقارن مقارنات ظالمة، فنحن نتصور أن المقارنة بين صاحب القرآن وصاحب المال وكأنهما خصمان، وكأنهما متقابلان ضدان، وما هذا بفكر، إنما الفكر

الرشيد أن يكون صاحب المال هو صاحب القرآن؛ لأن القرآن كما قال الله تعالى ((يهدي للتي هي أقوم)) وليس من التي هي أقوم أن يكون المرء بائساً فقيراً وهو قادر على الكسب والعمل والغنى، وقد كان من نزل على قلبه القرآن- صلى الله عليه وسلم- أغنى الناس، وكان أكرم الناس، وأجود الناس، وأطيب الناس رائحة وريحاً و أركى الناس نفساً، كان يقبل الهدية يثيب عليها، وقد عاد رجل من عنده فقال لهم: جئتم من عند رجل (رسول الله) ينفق ولا يخشى الفقر، فالواجب على صاحب القرآن أن يكون ذا حرفة وعمل، وأن يكون أغنى الناس، إنما المقارنة بينه على تلك الحال وبين غيره الذي لا حظ له من كتاب الله، وقد أوتي حظاً عظيماً من الدنيا وزينتها، عندما ينظر إليه صاحب القرآن والدنيا على أنه أوتي خيراً منه، فهذا غير صحيح، وقد شهد التاريخ الإسلامي منذ فجر الدعوة إلى ما شاء الله أصحاب القرآن الكريم وفي مقدمتهم بعد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أبو بكر الصديق- وكان من أغنى الناس وكذلك كان عمر بن الخطاب، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من أمراء المؤمنين والخلفاء، وكان الليث بن سعد فقيه مصر صاحب مال غزير، وهو من أهل القرآن والفقه، وكذا كان أبو حنيفة وغيرهم من السادة العلماء الأغنياء، فليس لدينا توصيف يقول: هؤلاء أصحاب قرآن ودين، وهؤلاء أصحاب مال ودنيا، تلك نظرة خاطئة، ورؤية ظالمة ولعل موقف عباد بن بشر- رضي الله عنه- يعيد إلينا ذلك الإحساس بكتاب الله عز وجل، ويزرع فينا وفي أجيالنا حب الإقبال عليه بطيب الجسم والنفس، فإذا بدأنا في تلاوة سورة منه وودنا أن نكملها ولو قطعت أنفاسنا، وزهقت نفوسنا لأننا في مسيرة المعية لكلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(٢) سلمى بنت قيس

هي سلمى بنت قيس بن عمرو بن عبيد بن مالك بن عدى صلت القبليتين، وبايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ألا تشرك بالله شيئاً، ولا تسرق، ولا تزني، ولا تقتل ولدها، ولا تأتي بيهتان، ولا تعصى في معروف ولا تغش زوجها .

خرجت من البيعة، ثم قالت لامرأة معها سليفه: ما غش الأزواج ؟ فسألته: فقال - صلى الله عليه وسلم - تأخذ ماله فتحابي به غيره. وما أكثر اللاتي يأخذنا أموال أزواجهن لمحاباة غيرهم، من الأهل، والجيران. حتى البواب، تكسبه لصالحها حتى يقول، هذه السيدة كريمة، أما زوجها فجلدة، منتهى البخل والحرص، صحيح أنه يجوز للمرأة أن تنفق من مال زوجها غير مفسدة، على سبيل الصدقة، والمال (غير مفسدة) بمثابة الشرط، فإن أفسدت فلا صدقة ولا أجر، مهم أن تعرف المرأة المسلمة هذه البيعة، التي منها ألا تغش زوجها، وأن تعرف معنى الغش، وأن تتذكر حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا).

إنَّ أول درس يكمن وراء هذا الموقف الذي رأيناه من سلمى بنت قيس - رضي الله عنها - هو درس المعرفة لقد بايعت على عدم غش الأزواج، وهي كلمة قد تتنازعها المعاني المختلفة، ترى هل غش الزوج أن تقول له إذا دعاها إلى فراشه أنها مريضة وهي ليست مريضة، وهل يكون غشه في خيانتة شرفاً وعرضاً وهكذا ... أرادت أن تعرف المراد بالضبط لأنها بايعت، ومعنى البيعة الالتزام والوفاء، فكيف تلتزم وتفي بشيء لا تعرف معناه، ومن ثم سألت وعرفت، والآن بعد أن عرفت اطمأنت، وعقدت العزم على الوفاء بما بايعت عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وكثير من الناس يوقع على عقد دون أن يكلف نفسه قراءة ما جاء فيه، تراه يمسك بالقلم، ويقول على بركة الله، ولا يدري ماذا جاء فيه من بنود، قد يكون من بينها بند هو كفيل بأن يودعه في غياهب السجون، وبعضهم يتعلل بالثقة، وبعضهم يقول: ربك أعلم بالنية، والله لا يهدى كيد الخائنين، والعقد شريعة المتعاقدين، وهو يوجب الوفاء وكيف يتسنى الوفاء بشيء لم نعرفه فضلاً عن عدم اطلاعنا عليه.

ومن أهم دروس الموقف أن المال عصب الحياة وقوامها، ولذا كان من غش الزوج أن تأخذ الزوجة مال غيرها، فتحاب به غيره، وقد يكون غيره أحداً من أهلها، وقد يكون أحداً من أهله، وما أكثر النساء اللاتي يحبين أن تظهر صورتهم بالكرم والجود والذوق الرفيع دون صورة زوجها، عن طريق بذل ماله، وشراء هدايا لغيره، فيقال هي كريمة جوادة، وبنت أصول أما زوجها فجلدة ممسك، لا يهون عليه شيء إنها دائماً مَنْ تقوم بالواجب، ومن تحرص على جبر خاطر، أما هو فلا، ولو أنها قدمت هذه الهدايا باسمه، وقالت فلان يهدى إليكم هذا لكان خيراً لها، ولو أنها حضته على إطعام المسكين، وشجعتة على صلة رحمه، لكان لها ثوابها وأجرها، دون أن ينقص من أجره شيئاً والله - عز وجل - واسع؛ لكنها الخيانة البغيضة والغش الممقوت، غش من تأخذ مال زوجها تبتغي رضا غيره عنها دونه وهو الذي شقي في جمعه، وبعضهن يقلن: لو قلت له افعل كذا لما فعل فأنا آخذ من ورائه دون أن يشعر، ولست آثمة وما هذا بصواب، فلها عليه نفقتها هي وعيالها بالمعروف وهو حر في ماله .

(٣) أبو أمامة بن ثعلبة

اسمه: إياس بن ثعلبة الأنصاري الحارثي، روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة أحاديث.

الأول: ((من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حقه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)).

والثاني: البذاذة من الإيمان .

والثالث: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صلى على أم أبي أمامة بعدما دفنت .

وفي غزوة بدر، حين هم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالخروج مع أبو أمامة، لكن كانت هناك مشكلة، وهي أن أمه كانت مريضة فقال له خاله أبو بردة بن نيار: أقم على أمك؛ فقال له أبو أمامة، أقم أنت على أختك، فتنازعا فحكم بينهما - صلى الله عليه وسلم - وقال لأبي أمامة: أقم أنت على أمك، فأقام عليها وخرج خاله مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

إن موقف التنازع بين الابن والخال على فضيلة من المواقف التي باتت غائبة في زماننا إلا عند من رحم الله

فهل رأيت أخوين يتنازعان في خدمة أمهما، هذا يقول أنت، وأنا أسعى إلى جلب الرزق، وذلك يقول أنت، لا أنا، فأنا الذي أطيّر في الهواء وآتيها بالطعام والدواء، أم تراهما يتنازعان أيهما أولى بالشقة بعد وفاة أمهما مع أنها مازالت على قيد الحياة !

لقد آثر أبو أمامة أن يجاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأن يبقى خاله مع أمه التي هي أخته، بينما آثر خاله أن يبقى هو مع أمه، ويترك له الفرصة لكي يجاهد في سبيل الله مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واحتكما إليه - صلى الله عليه وسلم - فأعطى أبا أمامة

الأولوية في خدمة أمه والأولويات مهمة جداً في حياتنا، وإن أطيح بها في هذا الزمان، فالولد أولى بخدمة أمه، أي الولد الصالح السوي، لأنه أرفق الناس بها، وقد سأل رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن أحق الناس بحسن صحابته فقال أمك فلما قال: ثم من؟ قال: أمك، فقال: ثم من؟ قال: أمك؛ فقال: ثم من؟ قال: أبوك ولو قال ثم من؟ لقال: أبوك، ولو قال ثم من؟ لقال: أبوك، ثلاثاً نظير ثلاثاً، لكنه لم يقل.

وقد قال الله - تعالى - ((وبالوالدين إحساناً)) وقد جاء رجل راغب في الجهاد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له ألك والدان؟ بصيغة التنثية دون التفريق بين والد ووالدة، لكن الرجل لم يسأل قائلاً ثم من؟

فما بالك بمن يهمل أمه، ويتركها لجاره متعللاً بأنه ذو عيال وأعمال، فلا وقت عنده لأمه التي حملته كرهاً، ووضعت كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، غذته من لبن الحياة وليداً وسهرت على راحته، وتمريضه، وتمنت له الحياة، وآثرته على نفسها، وهو زرعها، أما وقد أينع ونضج وبلغ الغاية التي تؤمل، ووصل إلى المرحلة التي كانت تنتظر أولاً تنتظر إذا به يهجرها بالكلية وهو قادر على إسعافها وإنعاشها وإسعادها !

والجنة كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - عند قدميها أي الوصول إلى جنة الله الغالية عند طاعتها وخفض الجناح لها، إن من الشباب من يهمل والديه خصوصاً أمه عند الكبر، ويرميها بالتخلف وسوء العقل والفكر، ويريد أن ينصب لها حبل المشنقة، وأولى به أن يرحمها، وأن يعلم أنها لن تعود صبية طفلة كي تتلقى على يديه درس الحياة المعاصرة، وإنما عليه أن يقدر لها قدرها لشيء واحد لا تتسع له المجلدات وهو أنها ((أمه)).

لله أمرها، وعليها رحمة الله

(٤) سودة القرشية

امراة من قریش، مات زوجها، وترك لها خمسة أطفال وخطبها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: والله ما يمنعني منك وأنت أحب البرية إليّ، ولكني أكرمك أن يضغو هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية؛ فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرحمك الله إن خير نساء ركن على أعجاز الإبل صالح نساء قریش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه لبعل في ذات يده)).

دروس عظيمة نتعلمها من سودة القرشية أهما .

١- أن البحر ليس طحينة ولا عسلا، والصراحة نور والنظر في العواقب من حسن الفطن، وكم من أناس يقولون: ولا يهملك، أنا أتصرف، أنا أفعل كذا بارك الله في جدة الأولاد، أمي ترعاهم وأنا سأجعلك سعيداً هذه امرأة صادقة، فاستحقت أن يقول لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرحمك الله .

٢- وفيها مدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إياها جزاء صدقها ومن الناس من يظن ذلك تعقلاً بالرفض، يقول: لا، ما هذه هي الحقيقة، أنت ترفضين ولكن بشيء من الأدب وقد يقع ذنبه على جنبه.

إن هذه المرأة كانت سبباً في مدح نساء قریش ولطالما كان المرء ذكراً أو أنثى سبباً في مدح بني قومه، أو سبباً في ذمهم، وليس من الإنصاف أن يؤخذ قوم بذنب فرد، لكن لما كان الناس يتسرعون في ذلك كان على اللبيب أن يكون حريصاً على ألا يجلب عاراً على قومه هم منه براء، ولعل ذلك يفسر لنا هجمة الغرب الشرسة على الإسلام

والمسلمين بسبب تصرفات بعض المسلمين، ولم يفرقوا وهم السدير يدعون الموضوعية ويدعون إليها بين بعض الأشخاص وبين منيار مسلم، كما لم يفرقوا بين المنتمى إلى دين وبين الدين نفسه، وقد فطن سماك بن خرشة - رضي الله عنه - من قديم إلى هذا المعنى، حيث قاتل بسيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان في جيش الأعداء امرأة تستحق القتل، كانت هذه المرأة تقاتل، والمرأة إذا قاتلت لم تصبح امرأة وإنما هي رجل يجب قتاله، وحربة يجب إيقافها وكانت تنظر إلي كل جريح يسقط من المسلمين وتتجه إليه، فتقضي عليه، حتى لا يقوم من جرحه، اتجه إليها سماك (أبو دجانة) وهي ترتدي ثوب الرجال وتبدو رجلاً مثلثاً فلما رفع السيف الكريم ليضربه ولول، فإذا به امرأة فتركها أبو دجانة وقال: لولا أن يقال: قتلت امرأة بسيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقتلتك .

ومن قبل ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زعيم المنافقين في المدينة ابن أبي سلول، وقال نحسن إليه مادام فينا، ولا يتحدث الناس إن محمداً يقتل أصحابه، وهكذا نرى هذا البعد الذي لا يلتفت إليه كثير من الناس، فمن في الناس قال: أخشى إن فعلت كذا أن يقول الناس إن المسلمين صاروا على أسوأ حال، وأقرب مثال إلى ذلك: مَنْ من هؤلاء الذين نراهم في نهار رمضان يدخلون في الشوارع، ويفطرون عمداً أو حتى بعذر نهاراً جهاراً قال: على أن أبدو صائماً حتى لا يقال: إن من المسلمين من ينتهك حرمة الشهر الكريم وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال فمن ابتلى من هذه القاذورات بشيء، فليستر على نفسه)) رواه البخاري عن عبادة بن الصامت .

إن هذا الستر من الجهاد الذي لا يتكلم فيه أحد جهاد أن تكون صورة المسلمين جميلة، وإن لم ننل من هذا الجمال قدراً نرتقي به في الدنيا والآخرة.

(٥) سماك بن خرشة

الخرجي الساعدي، كان من الأبطال، وكانت له عصابة حمراء إذا لبسها علم الناس أنه سيقاقل، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فسأل أبو دجانة سماك بن خرشة: وما حقه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: تقاقل به حتى ينحني، فقال أنا أخذه بحقه، فأخذه، وأخرج عصابته الحمراء ومضى يتبخر، بين الصفين فقال عليه الصلاة والسلام ((إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)) .

ومما ذكره السهيلي أنه رأى فارساً ملثماً يزف على جرحى المسلمين، يقتلهم، فلما هم بضربه ولول فإذا به امرأة، فقال أبو دجانة: لولا أن يقال قتلت امرأة بسيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقتلتك .

ومن أهم الدروس المستفادة من ذلك.

- السؤال قبل تناول الأشياء، فمن سلبياتنا أن نقول أنا عند السؤال بمن دون أن ندري ما وراء ذلك من مهام.
- وأن الذي يتبخر في جهاد الأعداء صحيح تبخره وصدق المثل القائل (أتشطر على الذين ضربوك) يقال فيمن يبدي شجاعته على أخته الضعيفة .

إن قول النبي صلى الله عليه وسلم في سماك بن خرشة وقد مضى في تبخر ((هذه مشية يبغضها الله - تعالى - إلا في هذا الموضع)) يفتح أمام أعيننا أبواباً من التأمل في واقع مأسوي مخالف تماماً لهذا الهدى فنحن في الغالب نتبخر في كل موضع من المواضع التي يبغضها الله تعالى - إلا في هذا الموضع، الذي يحب الله - عز وجل - أن يرانا فيه على تلك الهيئة فأولادنا يكونون في قمة النشاط عند اللعب،

أما عند تحصيل العلم فهم كسالى، والمرء يتبخر على أهله، ويقوى على إخوته، وهو عند مواضع العزة، وطلب الرزق، والمجد ليس كذلك: ثم ورث الناس هذه العبارة (كن رجلاً على الذين آذوك وأهملوك ولا تكن رجلاً على) وما أشبه هذه العبارة بقول الشاعر:

أسد علياً وفي الحروب نعمة

فمن أراد أن يكون أسداً فليكن ولكن على الصحراء الشاسعة التي تنادى من يعمرها، وعلى الكتب العظيمة التي تنادى من يطالع فيها ويخرج اللؤلؤ المنثور، والجوهر المكنون من تضاعيف سطورها وعلى الذين يحتلون أراضيها، وينتهكون أعراضها وعلى الفقر الذي نهش أبداننا وأرواحنا، وعلى المرض الذي استوطن أكبادنا وأمعاننا، أي عليه - إن فطن ألا يكون أسداً في حارة ضيقة متهاكة أهلها مساكين، ومرافقها مسكينة، فيروع أهلها، وينشر الفرع بين ضلوعهم الضعيفة، ويتلف صنوبر الماء الفقير الذي يعيشون عليه، وإذا ركب في مواصلة من المواصلات أفسدها، وسرق منها، والله در امرأة، روى البخاري حديثها عن زوجها، ونعم الزوج كان حيث قالت فيه زوجته: (زوجي إذا دخل فهد، وإذا خرج أسد) أي أنه إذا دخل بيته كان فهذا ناعماً، وإذا خرج من بيته كان أسداً كاسراً يواجه ريح الظلم، ويتصدى لكل ظالم، ويجلب الخير إلى بيته وأهله، وهكذا يكون المسلم، وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في خدمة أهله، يحلب شاته، ويعالج ثوبه ونعله وقد قال - صلى الله عليه وسلم - كما روى البخاري في صحيحه ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)) والأهل يتسع معناه لكل بني وطنك، فإن كنت ممن يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم - بحسب

فتواضع لأهلك وارحمهم وكن أسداً على عدوك وعدوهم وفى لبك وقلبك
قول الله تعالى:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ
الزَّارِعَ يُغَيِّظُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴾ الفتح: ٢٩

(٦) ليلي بنت أبي حثمة

القرشية العدوية، امرأة عامر بن ربيعة وأم ابنه عبد الله بن عامر
ابن ربيعة .

هاجرت الهجرتين، إلى الحبشة وإلى المدينة، وصلت القبلتين .
قالت: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما
تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة، جاءني عمر، وقد نسي عامر شيئاً
ذهب لإحضاره، فقال: إلى أين يا أم عبد الله ؟

قلت: أذيتونا في ديننا، فنذهب في أرض الله، حيث لا نؤذى في
عبادة الله؛ فقال: صحبتكم الله، ثم ذهب، فجاءني زوجي عامر بن ربيعة
فأخبرته بما رأيته، فقال: أو تطمعين في إسلامه؟
قلت: نعم

قال: والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب.

روى عبد الله بن عامر قال: دعيتي أُمي يوماً ورسول الله - صلى
الله عليه وسلم - عندنا، فقالت: تعال أعطيك، فقال لها رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - ما أردت أن تعطيه ؟ قالت: تمرأ فقال لها أما
أنك لو لم تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة .

وعلى طريق ليلي - رضى الله عنها - نقف حول إحساس نادر،
إحساس المرأة الذي ظلمناها بسببه، فرأينا أنه إحساس بخيانة زوج، أو
إحساس بنبض حب، أو غير ذلك مما له علاقة بالجنس دون سواه،
وأقول إنه إحساس نادر؛ لتعلقه بالفراصة، وحسن المآل وقد ورد أن
أفرس الناس عزيز مصر، حين تفرس الخير في يوسف - عليه السلام -
فقال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وبنت شعيب،
حين قالت لأبيها: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين،
وأبو بكر - رضى الله عنه - حين اختار عمر بن الخطاب أميراً للمؤمنين

من بعده، و كان حق ليلي علينا أن نضمها إلى الثلاثة، حتى يكون أفرس الناس أربعة، فقد هدتها فراستها إلى أن عمر - رضي الله عنه - سوف يسلم، وقد كان ولا أقول أربعة فقط، وإنما علينا أن نبحت عن غيرهم، وهم كثير، ولعل هذا يطوق بنا حول موضوع الاجتهاد، الذي لم يتوقف إلا عند مَنْ تحجرت عقولهم، وأبت قلوبهم إلا أن تقف على مأثور، يتسع لمعالجة الحياة كلها، فضيقوا واسعا.

لقد حكى ليلي - ما دار بخلدنا حين رأت رقة لم تعهد لها لاهي ولا غيرها في عمر، وأن هذا أول القطر، وأن الله - تعالى - هاديه إلى الإسلام، وقد قال زوجها: والله لا يسلم حتى يسلم حمار أبيه ياساً سببه ما رآه منه من غلظة وشدة على المسلمين، ولا شك أن زوجها لم ير عمر في تلك الساعة، وربما أحس بما أحست به زوجته، وشعر بنفس شعورها، وقد يختلف، ويبقى المعنى قائماً: ((ليس من راء كمن سمع)) ونعم ما رأت ليلي، وقد صدقت، ولنا من دروس هذا الموقف الجميل درس الإسلام العظيم وأثره في تحويل السلوك، ولا ريب أنه دين أشرقت شمس على الوجود من أجل تزكية النفوس، قَالَ

تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ آل عمران: ١٦٤

ومن الضلال المبين تلك القسوة وهذه الغلظة، وقد قال ربنا تعالى مخاطبنا رسوله - صلى الله عليه وسلم - قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِمْ لَبِثَ أَجَلٌ قَلِيلٌ لَّعَلَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَفْقَهُوا مِن حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران: ١٥٩

أما آن للمسلمين المتصفين بالغلظة أن تلين قلوبهم لذكر الله ويرحموا عباد الله معتبرين أن تلك الرحمة آية وعلامة على الإسلام.

(٧) أبو شريح الخزاعي

قيل اسمه عمرو بن خويلد الخزاعي الثعلبي حامل لواء بني كعب ابن خزاعة يوم الفتح.

كان من عقلاء الرجال، وفي سيرته موقفان جديران بالذكر .
الأول: أنه أعلن في الناس، فقال: إذا رأيتموني أبلغ من أنكحته أو نكحت إليه السلطان فاعلموا أني مجنون، يريد أنه بوسعه أن يحل ما بينه وبين أصهاره من مشكلات، لا يرفع الأمر إلى السلطان وهذا مفقود عند كثيرين منا، نحن نرفع الأمر إلى القضاء في آتفه الأمور، وبيننا عشرة وعيش وملح وغيرهما .

والثاني: أنه قال: من وجد لأبي شريح سمناً أو لبناً فهو حل له فليأكله وليشربه .

منتهى الكرم الذي ورثه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أجود الناس وأكرم الناس وأجود ما يكون في رمضان.

إن هذين الدرسين من مقومات الشخصية المسلمة، درس التفاهم مع الأنساب والأصهار، وعدم اللجوء إلى القضاء، الذي من شأنه أن يتولى القضايا الخطيرة، وفض النزاع بين الخصوم، صحيح أنه من الممكن أن تكون هناك خصومة بين المرء وزوجه ولكن انظر كيف يكون علاجها في ضوء القرآن الكريم ألا ترى إلى قوله - عز وجل - ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ شُرُوهُمْ فَعَضُّوهُمْ وَأَضْرِبُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ النساء: ٣٤

كيف جعل البيت محلاً للإصلاح، وكيف أمر الرجل أن يبادر إلى إصلاح نشوز زوجته قبل أن يحدث الفعل وقبل أن يستفحل الأمر،

وتتباعد المسافات، فعلاج الأمراض من أول ظهور أعراضها مجد بلا شك بخلاف مالوا أغض عنها المرء وأغمض حتى تتضاعف كذلك الحال، فلما كان الأمر من الممكن كذلك أن يصل إلى حد الشقاق قال الله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ النساء: ٣٥

ما قال فارفعوا أمرهما إلى القضاء والمحاكم، وإنما أمر بأن يكون حكم من أهله، وحكم من أهلها، منتهى البيوتة، فالبيت محل الزوجية، وهو سكنهما، وفيه سكنتهما، وراحتهما، وعلاجهما واليوم ترى كل من هب ودب من الناس يعلم الأسرار الزوجية، ترى الرجل يشكو زوجته ربما إلى رجل لقيه في الطريق، وهو لا يعرفه وتراها تشكو زوجها لامرأة تقف معها في طابور العيش وتحكى لها أدق الأسرار، فضلاً عن رفع الأمر إلى محاكم الأسرة، والأسرة ليست في حاجة إلى محاكم لو أخذ الناس بكلام أبي شريح - رضي الله عنه .

وإعلان ذلك الصحابي الكريم حامل لواء قومه يوم الفتح أن الذي يجد له مالاً أو لبناءً، ويطمئن إلى أنه له فهو له حلال. فليأكله وليشربه من دعائم بناء تلك الشخصية المسلمة، فإن قال قائل إن الأخذ بهذا الكلام يضيع المال، والمال قوام الحياة يا سيدنا، فالجواب أنه قال: يأكل ويشرب، ولن يضيع مالك بأكله جائع وشربه مسكين، ما قال أبو شريح: فليأخذه ويدخره ويثرى به، وإنما قال: ليأكله أو يشربه، ومعنى ذلك أن المحتاج يجد حاجته، فالذي يشرف على الهلاك بسبب شدة أصابته يأكل من مال المسلمين دون ادخار وعليه أن يستأذن إن وجد من يستأذنه، فإن لم يجد أكل، وقد أعطى أبو شريح الإذن مسبقاً، وأعلنها في الناس فهنيئاً له وما نقص مال عبد من صدقة فأين مثلك يا سيدي في هذا الزمان !

(٨) أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

القرشية الأموية

أسلمت قديماً بمكة، وصلت القبلتين، وبايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهاجرت إلى المدينة، وجرى ورائها أخوها في طلبها فمنعها الله.

- ١- لما قدمت المدينة تزوجها زيد بن حارثة، ومات عنها شهيداً بمؤته
- ٢- فتزوجها الزبير بن العوام، فولدت له زينب .
- ٣- ثم طلقها الزبير، فتزوجت عبد الرحمن بن عوف، فولدت له إبراهيم وحُميداً، وغيرهما ثم مات عنها عبد الرحمن بن عوف .
- ٤- فتزوجها عمرو بن العاص، وظلت عنده شهراً ثم ماتت رضي الله عنها .

ما ضرها أن تزوجت فمات عنها زوجها، فتزوجت، ثم طلقت، ثم تزوجت، ثم تأرملت القصة ليست في الزواج والطلاق عند المسلمين، فللحياة رسالة سامية وهي عبادة الله وعمارة الأرض .

(ماروته لنا) :

روى عنها ولدها حميد بن عبد الرحمن قول النبي - صلى الله عليه وسلم - ((ليس بالكاذب من أصلح بين الناس فقال خيراً)) رضي الله عنها وأرضاها.

إذا ذكر مثل هذا في حياة رجل طارت أخباره في الآفاق، وذاع صيته، ومن حق المرأة أن يكون لها هذا القدر، لقد هاجرت أم كلثوم بنت عقبة الهجرة المباركة، وحماها الله من مطاردة المشركين ولم تكن هجرتها سفراً بالطيارة، أو السيارة المكيفة وعلى طريقها قرى ظاهرة وأطعمة وأشربة، وإنما السفر على متن ناقه، والطريق غير معبدة،

والمخاطر على جانبيها، والمسافة بعيدة، والزاد قليل عناء في عناء، لكنه على العزم، وهى رضي الله عنها ذات عزم، وصلت القبلتين كما صلاهما رجال إلى بيت المقدس، وإلى الكعبة المشرفة، فما قالت كما قال السفهاء ((ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها)) وإنما انطوى قلبها بين ضلوع مؤمنة يهتف فيها قول الحق - تعالى - لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ((.

وحين تزوجت زيد بن حارثة - رضي الله عنه - ومات عنها في مؤتة شهيداً ما قالت: أهذا يا رب آخر صبري وهجرتي وصلاتي، ألا تحفظ لي زوجي الذي خرجت به من الدنيا (كما تقول نساء كثيرات في زماننا) .

لكنها احتسبته عند الله - عز وجل - وحين خطبها حوارى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الزبير بن العوام تزوجته، ورزقت ((زينب)) منه، وطلقها ما قالت بنتي المسكينة، وأنا أرملة من قبلها، وإنما رضيت لأن الزواج والطلاق ليسا كل الحياة الدنيا، بسببها يسعد الإنسان أو يشقى، إنما يسعد ويشقى بإيمانه وكفره، وتزوج من بعد الزبير بن العوام بعد الرحمن بن عوف، وترزق منه ب ((إبراهيم، حميد)) وغيرهما ثم يموت عبد الرحمن، ولكل أجل كتاب، وكان كتابها هي عند عمرو بن العاص، ماتت بعد شهر من زواجها به .

ومن ذريتها حميد بن عبد الرحمن بن عوف الذي روى عنها خير الكلام، ما قال حميد، تزوجت أمي زيد بن حارثة فمات عنها، وتزوجت الزبير فطلقها وإنما قال: روت أمي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله ((ليس الكذاب من أصلح بين الناس فقال خيراً)) ونعم ما روى عن أمه، فهلا ذكر امرؤ مسلم اليوم أمجاد أمه إن كانت ذات مجد، أو علمها إن كانت ذات علم بدل أن يحكى سيرتها الذاتية، وهلا تعلمنا من هذا الحديث الشريف كيف نصلح بين الناس !

(٩) أبو عطية الوادعي

مذكور في الصحابة الشاميين كما قال ابن الأسير في أسد الغابة (٦/ ٢٠٢) .

روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جلس يحدث أن رجلاً توفي، فقال عليه الصلاة والسلام: هل رآه أحد منكم على عمل من أعمال الخير؟

فقال رجل: حرصت معه ليلة في سبيل الله فقام صلى الله عليه وسلم، ومن معه فصلى عليه، فلما أدخل القبر حثاً على التراب بيده، وقال: إن أصحابك يظنون أنك من أهل النار، وأنا أشهد أنك من أهل الجنة .

عظيمة رحمة الله - عز وجل، وواسعة وما أوسع الطرق التي تؤدي إلى الجنة، ومنها حراسة يوم في سبيل الله، ومنها رغيف تطعم به مسكيناً ومنها إمطة الأذى عن الطريق .

وقد ورد في رواية نفيسة من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - حين قال عليه الصلاة والسلام - على كل مسلم صدقة، فقال أبو ذر: فإن لم يجد؟ قال عليه الصلاة والسلام: يعمل، فيكسب ويتصدق فقال أبو ذر فإن لم يجد؟ فقال عليه الصلاة والسلام: يصنع لأخرق، أي لرجل لا يحسن صناعة، فقال فإن لم يجد؟ قال: يجيب ذا الحاجة الملهوف، فقال أبو ذر فإن لم يجد، قال عليه الصلاة والسلام: فبكلمة طيبة .

قال أبو ذر: فإن لم يستطع .

قال عليه الصلاة والسلام: يسكت عن الشر .

فقال أبو ذر: فإن لم يستطع .

فقال له - صلى الله عليه وسلم - أتريد أن لا تجعل لأخيك باباً من أبواب الخير .

وما أوسع صدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما أوسع الإسلام الذي جاء به حاملاً أبواب الخير للناس، فمن لم يستطع أن يغير منكراً بيده، لأنه لا سلطان في يده غيره باللسان، أى بالنصح والإرشاد، فإن كان لسانه عاجزاً عن البيان حيث لم يكن من أهل العلم، ولا من أهل الخبرة بصياغة العبارة الجامعة المانعة غيره بقلبه، ولن يعجز عن قلبه، وتغييره بالقلب عدم رضاه عنه وأنت إذا تفكرت في مثل هذا النور الذي يضيء البصائر والأبصار أدركت أن المسلم دائماً على خير متى قدم الخير حسب طاقته، ولو نقلت هذا المعنى إلى عملية حسابية يسيرة غير معقدة قلت إن عدد المسلمين في مصر وحدها لا يقل عن ٦٠٠٠٠٠٠٠ ستين مليوناً، لو قدم كل منهم جنيهاً واحداً كل شهر لوجه الله عز وجل، واستمر ذلك في عام واحد تحصل على ٦٠٠٠٠٠٠٠ X ١٢ = ٧٢٠٠٠٠٠٠٠ أي تحصل على سبعمائة وعشرين مليوناً أي ما يقرب من المليار به تبني مؤسسة، وبه تستصلح أرض، وبه يبني مصنع، وغيره، ولو ظللت تستثمر هذا عدة أعوام لتغير وجه الحياة، بل إنك لو سألت بالله الناس أن يعطى كل إنسان وطنه ساعة من وقته لتنظيف الشوارع، الأمر بالمعروف في الإسلام بإمطة الأذى عن الطريق لتغير وجه الحياة كذلك، لأن الساعة من الفرد أعمار وقرون إذا تضافر الأفراد معه ولو أن كل إنسان نظف أمام بيته لما وجد بيت أمامه ما يشينه، وهكذا، والحديث الذي رواه أبو عطية - رضي الله عنه - يفتح أبواب الأمل في رحمة الله الواسعة لكل من حرس ليلة في سبيل الله، وكل من أطعم مسكيناً ونصر مظلوماً وهو يرد على أولئك الذين يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ولا في سنة رسوله، يعتبرونها وحدها الطريق إلى رحمة الله، ومنها الشكل المعروف، والدين ليس دين الشكل، وإنما هو دين المعاني فأين هي ؟

(١٠) أنيسة بنت عدى الأنصارية

أم عبد الله بن سلمة، البدرى، وشهيد أحد، رضي الله عنه، أمه هي أنيسة بنت عدى الأنصارية جاءت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد علمت باستشهاد ولدها، وكانت لها رغبة، أن تنقله من أحد حيث مات، وتدفعه قريباً منها، لتستأنس به، مجرد إحساسها بقربه يعالج شيئاً فيها، يواسى معنى فى صدرها، يريحها، ولا يتناقض ذلك وتسليمها أمرها لله - عز وجل - قالت يا رسول الله أتأذن لي أن أنقل ولدى عبدالله بن سلمة، ليكون إلى جوارى، فأنس به، فأذن لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وركبت ناقتها، ومعها بساط كبير لتلف فيه ولدها، وتحمله على ناقتها، ووصلت إلى أحد، وعرفت ولدها، ونزلت، وبسطت بساطها، ولكنها قالت: كيف أحمله على الناقة لا بد من عدله، ليكون على جانب يعدله غيره فلفت معه المجذر بن زياد، كان إلى جواره ووضعتها على الناقة، هذا في ناحية، وهذا في الناحية الأخرى، والعجيب أنهما تعادلا مع أن ابنا عبد الله بن سلمة كان ثقيل الوزن، وكان المجذر خفيفاً، ما سقط ولدها آخذاً معه المجذر وتعجب الناس من ذلك فقال - صلى الله عليه وسلم - ساوى بينهما عملهما، أى أنهما ماتا شهيدين رضي الله عنهما، فأصبح ثقيل الوزن وهو عبد الله معادلاً خفيفه وهو المجذر بن زياد، وفى هذا الموقف ما يدعونا إلى مزيد من التأمل، فإن التي أرادت نقل ولدها الميت إلى جوارها لتستأنس به ما كانت لتشعر بالوحشة معه وهو حي، بل كانت أشد أنساً به في حياته، بخلاف ما عليه كثير من الناس اليوم الذين يتوحشون في الحياة، وينفر بعضهم من بعض ويكاد يقول: لا مساس، فإذا مات لهم ميت سألوا ماذا يفعلون له، وسألوا عن

زيارة قبره وهل يشعر بهم ؟ وهل يحس بخطوهم، وندموا على تقصيرهم في حقه إذ كان حياً يرجو وصالهم فقطعوه ويرجوا عطفهم فقسوا عليه ويرجوا مودتهم فجفوه، كان على ظمأ فلم يرو ظمأه أحد، وكان على جوع فلم يسد جوعته أحد، وكان على وحشة من نفسه فلم يذهب تلك الوحشة أحد، كان يود أن يراهم فقالوا له: كذاب أنت فقط تود رؤية المال، يا طماع، يا عبد الدينار والدرهم أنت لا تحبنا، ولا ترغب فينا، وإنما ترغب فيما بين أيدينا فلما مات صار صادقاً، وأتاهم اللوم من تلقاء أنفسهم وأخذوا يسألون ماذا يفعلون من أجله، ويريدون عالماً يبعث الطمأنينة في نفوسهم، ويقول لهم: أنه يضحك مسروراً في قبره حين يراكم حوله زائرين، وهو يشكر لكم اهتمامكم به، وحبكم له الآن، حيث لن يشرب من أيديكم جرعة ماء ولن يغطيه منكم ثياب، إنه فقط يريد أن يستأنس بكم في قبره وهذا كلام غير سديد، فقد انقطع الميت عنهم وأفضى إلى ما قدام، وهو بين يدي الرحمن الرحيم، الذي هو أرحم به من والديه، لا يربطه شيء في الدنيا إلا ما أخذ منها من عمل، وما ترك فيها من صدقة جارية، وما خلف فيها من ولد، لا أى ولد، وإنما صالح يدعو له، سواء أكان الولد هذا ذكراً أو أنثى وإن أردتم أن تقدموا له شيئاً فدعاء عسى الله أن يستجيبه، أو صدقة عسى الله أن يتقبلها، وحج عنه إن حججتم قبل عن أنفسكم، فليبادر كل من يدعى حبه أرحامه وولده إلى إكرامه حياً قبل أن يأتي الأجل ويحال بيننا وبين أحببتنا، ولنبك بحق على أنفسنا ونحن أحياء قبل أن نذرف الدمع على أعتاب الوداع، فدفع الحياة يثمر ودمع الموت فناء مثله .

(١١) أبو مسلم الحرادي

كان وزير الداخلية على مصر في إمارة عمرو بن العاص، قال ابن الأثير: كان على شرطة عمرو بن العاص بمصر .

روى أن رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ؟ قال: أحية والدتك ؟ فبرها فتكون قريباً منها، قلت ليس لي والدة قال: فاطعم الطعام وأطبب الكلام.

أمران مهمان في سبيل المرء إلى الجنة .

إطعام الطعام، وطيب الكلام.

وغير محتاج إلى بيان أن الذي ليست له والدة أو الذي له والدة مطلوب منه هذان الأمران أيضاً إنما هو الاجتهاد في عمل صالح قد يجعل المرء أقل إقداماً في أشياء أخرى، كمن له والدة، يشغله بره بها عن مناوله مسكين، ونحو ذلك، لكن عليه زكاة مثلاً أو صدقة فطر أيكون بره بأمه مسقطاً عنه زكاته وصدقته ؟!

كلا، إنما هو كما قلت المبالغة في أمره إذ لم يوجد غيره

كم جاء النبي - صلى الله عليه وسلم - من رجال سألوه عن العمل الذي يدخلون بسببه الجنة، ترى هل ظل السؤال قائماً ؟ أم اختلفت أسئلة الناس ؟ وانظر إلى الجواب النبوي الرشيد، حيث جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - من الأعمال التي تدخل الجنة البر بالوالدين، خصوصاً الأم، لضعفها، وثقل ما قدّمت فحملته ثقيلاً، حيث حمله أبوه خفيفاً وقد تكون الأم مطلقة، أو أرملة، وهي أشد حاجة إلى برولدها بها، فمن يعطف عليها إن لم يعطف عليها ولدها فلذة كبدها، وابن أحشائها، ومن يرحمها إن لم يرحمها ولدها؟ ومن يسترها بروحه، قبل أن يسترها بثوب جديد، تهش له روحها، وتبرد به سخونة بدنّها، وتقربه عيناها إذا ما نظرت إليه .

فهل صار الجواب اليوم هو الجواب النبوي خصوصاً من هواة الدعاة، الذين جعلوا الطريق إلى الجنة أقوالاً وأشكالاً، فأنت من أهل الجنة إذا صليت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل يوم ألف مرة، وقلت: سبحان الله وبحمده ألف مرة وقرأت سورة كذا عشرين مرة، وقلت عبارة كذا هذا العدد المعين، وكنت من ذوى الأشكال المعروفة التي يطلق على المتزى بها لقب (أخ) .

لقد روى أصحاب الصحاح من المحدثين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جملة من الأحاديث في هذا السياق سياق السبيل إلى رحمة الله - عز وجل - وجنته، ومن يتأمل هذه الجمل من الأحاديث يجد أن سبيل الوصول إلى رحمة الله الواسعة، وجنته الواسعة ما يأتي :

- ١- الصلاة على وقتها، مع إقامة أركان الإسلام .
- ٢- الجهاد في سبيل الله.
- ٣- بر الوالدين.
- ٤- الرحمة بالإنسان والحيوان ومنها الرحمة بالصغير، والعطف على اليتيم .
- ٥- إطعام الطعام.
- ٦- ولين الكلام.
- ٧- وحفظ اللسان .
- ٨- وأن يسع المرء بيته.

وهذه الأساسيات تبني الشخصية المسلمة المؤهلة للدخول في رحمة الله، فهلا صارت هذه الأساسيات منهجاً للدعوة إلى الله، وتكون منها برنامج هادف يركز على الصلاة إقامة وروحاً، وروح الصلاة أمر

بالمعروف ونهى عن المنكر، قال تعالى ((إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)) وعلى أن الجهاد في سبيل الله معناه بذل غاية الجهد في إعمار الأرض وطلب العلم والسعي على الرزق وأن الرحمة تقتضى المدد المادي والمعنوي، إلى آخر هذه الأساسيات التي تبني شخصاً لو التزم بها دخل الجنة وإن اكتفى ب ((لا إله إلا الله والحمد لله والله أكبر)) ولو مرة واحدة.

(١٢) بريرة مولاة عائشة - رضى الله عنها

أعتقتها عائشة، فخيرت فاخترت فراق زوجها مغيث كان يحبها، يمشى وراءها في شوارع المدينة ويبكى فسألها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن تعود إليه فقالت: أمّر أم شفاعة؟ قال بل شفاعة قالت: لا حاجة لي فيه، وكان عبداً؛ لذلك خيرت .

قال عبد الملك بن مروان: كنت أجالس بريرة بالمدينة، فكانت تقول لي إن فيك خصالاً وإنك لخليق بهذا الأمر، فإن وليته فاحذر الدماء، فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ((يقول إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها بملء محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق)).

رحم الله بريرة، وأنساً كان الأمر عندهم له امتثال، وإن لم يوافق الهوى، فإن لم يكن أمر فالدنيا جميلة وفي الترك اتساع .

وما أجمل ما روته لنا من هذا الحديث الذي يبين لنا صورة من صور العذاب، حيث يرى العبد الجنة ولا شك أنه يفرح؛ لأن المسافة بينه وبينها قليلة، لكنه يدفع دفعاً عنها بسبب دم أراقه من مسلم بدون وجه حق.

اشترت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بريرة، وأعتقتها وعتق الرقاب من أفضل الأعمال، وقد سبقها إلى ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي أشتري العبيد وأعتقهم، فلزموه بعد العتق، وفازوا بلقب (مول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) حباً فيه، وكان عليه الصلاة والسلام - قد وهبته زوجته خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - زيد بن حارثة، فأعتقه قبل البعثة، وتبناه، فكان يدعى زيد بن محمد وارثاً وموروثاً حتى حرّم الله - عز وجل - التبني، وأعتق - صلى الله عليه وسلم - الكثير من العبيد، وأعتقهم وكذا فعل أبو بكر -

رضى الله عنه - وغيره من كبار الصحابة، وكان ابن عمر - رضى الله عنهما - إذا وجد عبداً له قد لزم المسجد، وبدا عليه الصلاح قال له: اذهب فأنت حر لوجه الله - تعالى - حتى قيل إن عبيده كانوا يخدمونه، فيفعلون ذلك لكي يعتقهم، فلما قيل له ذلك قال: إنا إذا خدعنا في الله اتخدعنا، والله - عز وجل - يقول ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَبْدَةَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَبْدَةُ ۖ فَكَرْبَةٌ ۚ﴾ (١٣) ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ۚ﴾ (١٤) ﴿يَسْمَا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ﴾ (١٥) ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۚ﴾ (١٦) البلد: ١١ - ١٦

وما أكثر الرقاب اليوم التي تفتقر إلى عتق من الفقر، والديون، وعتق من الجهل، وعتق من الأمراض الفاتكة، فلطالما عاش عبد في سعادة عند سيده ولطالما عاش حر في شقاء بين قومه، يشكو ولا يجد من يسمعه، ويحتاج إلى عون ولا يجد من يعينه، ويدخل المستشفى الحكومي، فيقال له اشتر كذا وكذا فلا يجد عنده مالا يشتري به ما يريدون، فيخرج بعلته وآلامه، ليزداد كل يوم علة ووجعاً .

وحدثتنا بريرة بهذا الحديث الشريف الذي يبعث في كل صدر من الفزع ما يبعثه، فهذا رجل أو أمة من الناس يقفون على باب الجنة، ويباينون نعيمها ويظنون أنهم داخلوها، وإذا بملائكة تدفعهم دفعاً بعيداً عنها بسبب دماء أراقوها بغير وجه حق فما بالنا بمن يذبحون أزواجهم وأولادهم وزملائهم بسبب حدة في الخطاب كان العفو والصفح أوسع لهم من هذا الذي أصابهم في لحظة من لحظات العمى، التي تصيب الناس عندما تغيب عنهم صورة الجزاء المر، الذي أعده الله لمن قتل أخاه، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿وَمَا كَانُ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ (١٣) النساء: ٩٢.

لو أبصر القاتل مصيره عند ربه ليس فقط حبل المشنقة لفكر ملياً قبل أن يريق دماً، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) .

فانظر كيف بدأ بالدم وهو أشد بلا شك وأولى بالتقديم .

أحد خدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اشتراه - صلى الله عليه وسلم - وأعتقه، لكنه مثل غيره، لزم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

روى فقال: أهبني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالليل، فقلت، وقلت: نعم يا رسول الله

فقال: إن الله أمرني أن استغفر لأهل البقيع فخرجت معه، فرفع يديه، ودعا لهم طويلاً ثم قال: يا أبا مويهبة، إن الله تعالى خيرني بين أن أملك خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة وبين لقاء ربي والجنة فقال أبو مويهبة - بأبي أنت وأمي يا رسول الله، خذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فقال: والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة قال: ثم انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما أصبح ابتدئ وجعه الذي قبضه الله فيه

ليل النبي - صلى الله عليه وسلم - استغفار، وما عند الله عز وجل خير من الدنيا وما فيها ويبدوا أن أبا مويهبة كان من ظرفاء الناس، على ما دل عليه قوله لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

حيث قال له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، خذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، ما كان يدرى أنه صلى الله عليه وسلم قد اختار، ولو علم أنه اختار لما قال له: خذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، إنه يرجوا الخلود للنبي - صلى الله عليه وسلم - وكذا كل صحابته الأخيار، فقد روى أنس - رضى الله عنه - إن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين قدم المدينة أضاء كل ما فيها، ويوم مات - صلى الله عليه وسلم - أظلم كل ما فيها، وأن قلوبهم قد أنكرت حين فرغوا من دفنه، وحق لهم أن ينكروا قلوبهم وأن يروا الحياة شيئاً منقوراً، لا عهد لهم به، ففي تلك

الساعة بدت المفارقة بين حياة فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي فيها الرحمة المجسدة، وبين حياة خلت من تلك الرحمة المجسدة، وبقيت معانيها وحتى يدركوا تلك المعاني لأبد من وقت كان بلا شك أصعب وقت مروا به، وطوف عليهم بظلال الإحساس البغيض، ولولا أن تداركهم الله - عز وجل - بنعمة منه لضاعوا الضياع الكامل ديناً ودنياً، ما أحد تمنى لأحد أن يعيش خالداً في الدنيا إلا صحابته - صلى الله عليه وسلم -، وكان على لسان كل منهم (بأبي أنت وأمي يا رسول الله) أي فداك أباي وأمي

وأبو مويهبة أحد هؤلاء الذين أحبوه، فما كان حبهم له مجرد كلام منه هذه العبارة، وإنما كان أبو مويهبة قريباً منه - صلى الله عليه وسلم - كما كان ربيعة بن كعب - رضى الله عنه - خادمه - صلى الله عليه وسلم - وكان لا ينصرف مع الغروب، وإنما يبقى قائلاً في نفسه: لعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحتاج إلى شيء بالليل وذات ليلة رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - واقفاً على مقربة من الباب، فقال: من؟ ربيعة، قال: نعم يا رسول الله قال: أما زلت باقياً لم تنصرف: قال: نعم، قلت: لعلك تحتاج إلى شيء، فسره - ذلك - صلى الله عليه وسلم -، ودعا له بخير، وحين قال له: تزوج يا ربيعة قال ما أود أن أترك خدمتك، وقد زوجه - صلى الله عليه وسلم -، وهذا أبو مويهبة، يناديه - صلى الله عليه وسلم - بالليل، فيجده، وأجمل شيء في حياة الإنسان أن ينادى فيجد من يلبي، وقد غرس الله - عز وجل - حب رسوله - صلى الله عليه وسلم - في قلوب أصحابه فما نادي حتى ألفاهم ملبيين والسعيد من يختاره - صلى الله عليه وسلم - لإنفاذ شيء، وقد ناداه لأشرف غاية هي الاستغفار، غفر الله لنا أجمعين، ورزقنا صدق الحب مادماً موجودين، ومن يلبي ندائنا إذا كنا منادين .

(١٤) زنيـرة والنجاح في الاختبار

كانت أمة مسكينة رومية، لبنى مخزوم، وقيل لبنى عبد الدار، أسلمت قديماً بمكة، وعذبها المشركون.

ولما أسلمت عميت، فصاح المشركون: انظروا لقد عميت زنيـرة، لأنها كفرت باللات والعزة سمعت بذلك، فخرجت إلى الناس، وقالت الآتي والعزة صنمان لا ينفعان ولا يضران وإنما هذا قدرى، فرد الله إليها بصرها نجحت زنيـرة في الاختبار، فأكرمها الله عز وجل، ورد عليها بصرها واشتراها أبو بكر واعتقها، فرحمها الله من عذاب المشركين

امرأة ضعيفة مسكينة، و أمة مملوكة، هدى قلبها إلى الإيمان، فنطقت بالشهادتين، وصارت أختاً بالمؤمنين، ولقيت ما لقيه المستضعفون منهم من أذى الكافرين، ولم يكن أذاهم للمسلمين على منوال واحد وإنما كان على ثلاثة أشكال

- ١- من كان غنياً مثل أبى بكر هددوه بكساد تجارته وضياع ماله.
- ٢- ومن كان ذا شرف ونسب قالوا له سفهت عقول أبائك، وشكوه إلى أهله.

٣- ومن كان فقيراً مسكيناً مثل (زنيـره)، و(بلال) و(صهيب) و(عمار بن ياسر وأسرته) حبسوه في حجرة مظلمة وضربوهم ضرباً قاسياً، وعذبوا أبدانهم، وهذا شأن البشر في كل زمان ومكان، الأمر الذى قال الله - تعالى - فيه ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (التوبة: ٨)

ويقول عز وجل ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا ﴾ (الكهف: ٢٠)

ولذا كان على الأمة الإسلامية أن تنهض اقتصادياً، وأن تظهر علمياً وأن تتفوق اجتماعياً من أجل صون كرامتها، وهناك فرق بين ظهور المسلمين على غيرهم، وبين ظهور غيرهم عليهم، فإنهم إن ظهروا على غيرهم رحمواهم وأما إن ظهر غيرهم عليهم فإن الأمر كما قال الله تعالى ((لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة)) .

وتبقى هذه النماذج المشرقة في التاريخ قناديل مضيئة، ومصابيح مشرقة، ونجوماً يهتدي بها في كل زمان ومكان، لكي يتفكر من هو فوقهم: كيف جاهد هؤلاء في سبيل الله وهم ضعفاء، ألا يستحي من هو مالك قوى أن يكون مع الضعفاء، وهو قادر على البذل، إن من الأسباب التي جعلت صدقة رجل مقبولة يتصدق بهما على غنى، والغنى لا تجوز له الصدقة إلا إذا أهدى إليه منها، أو اشتراها إلا لكي يعتبر هذا الغنى ويقول في نفسه: إن الناس يتصدقون فمالي لا أتصدق مثلهم، وقد يكون المتصدق الذى وضع صدقة فى يدي أقل منى، وكذلك حين تصدق على سارق، قيل له: لعله أن يتوب، أى يقول وما حاجتي إلى السرقة وفى الناس كرام يبذلون ويعطون ويطعمون، فلا كلها من حلال لا من حرام، ومن طيب لا من خبث، وكذلك حين يتصدق على زانية قيل له، لعلها أن تتوب أى من الجائر أنها تزني لكي تأكل، فإن وجدت من يطعمها عنها ذلك عن الفاحشة ولا تسوغ لها الحاجة أن تتركب الفاحشة، لكنها نفس ضعيفة يقودها ضعفها والشيطان إلى مواضع الرزيلة وهكذا يجب على الأغنياء المؤمنين أن يعلموا أن للمال رسالة فى الحياة تنبت التحريض الجميل، والعفة، والتوبة عن الفواحش، فإذا بخلوا وأمسكوا فقد سلموا غيرهم للخبائث وسوف يكونون من ضحاياهم عاجلاً أو آجلاً .

(١٥) أبو الهيثم التيهاني

مالك بن التيهان بن مالك بن عقيل الأوسي أحد نقباء العقبة

ذهب إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه أبو بكر وعمر وسأله عنه امرأته، فقالت: ذهب يستعذب لنا من الماء فانتظروه، وكان رجلاً كثير الشياه كثير النخل فلما رأهم كبر، وقال: والله ما في المدينة أكرم أضيافاً مني، وصعد النخل وأتى ببلح أحمر، وأصفر، ورطب . وقال: ليأكل كل مشتاه .

وذبح لهم، وقال له - صلى الله عليه وسلم - إياك والحلوب وبعد أن تناولوا طعام قال عليه الصلاة والسلام.

لتسألن عن هذا النعيم .
وسأله - صلى الله عليه وسلم - ألك خادم ؟
قال: لا .

قال: إن جاءنا سبي فأتنا .
فلما جاءه سبي ذهب إليه، فقال ولم ينس خذ غلاماً من هذين، فقال: اختر لي يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام: المستشار مؤتمن خذ هذا فإنني رأيته يصلي وأوصيك به، فلما حكي لزوجته قالت له: ما أراك تحسن وصيته - صلى الله عليه وسلم - إلا بعثته؛ فأعتقه .
والحديث الذي رواه مسلم يدل على أمور مهمة في سلوك المسلم التي أسسها النبي - صلى الله عليه وسلم - بطريقه عملية فقد قصد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صاحبه أبا الهيثم التيهاني، وكان رجلاً كثير الشاة كثير النخل، أي كان رجلاً ميسوراً، بوسعه أن يكرم ضيفه دون مشقة أو عناء أي أنه لم يقصد رجلاً من الصحابة على

ضييق ذات يده فيضييق عليه، أو يحرجه، كما يفعل كثير من الناس، خصوصاً الأقارب، الذين يعلمون أن قريباً لهم لا يجد قوت يومه، وإذا بهم يباغتون في أي وقت، ودون سابق استئذان أو استئناس، ودون أن يحملوا معهم شيئاً له ليأكلوه معاً إنما يذهبون إليه ليأكلوا معاً إنما يذهبون إليه ليأكلوا طعام صغاره، ويجردوا بيته من الأخضر واليابس .

ومن تلك المعاني أن يذهب الرجل لكي يستعذب الماء إلى أهله، فقد سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - زوجة أبي الهيثم التيهاني عنه، فقالت ذهب يستعذب لنا من الماء، وقس على ذلك إحضار الطعام وغيره من مقومات الحياة، وهو عين القوامة قال تعالى: ((الرجال قوامون على النساء)) وليس معنى القوامة تسلط ذكر على أنثى، وهيمته عليها وضربها، وإزائها ليل نهار، وإصدار الأوامر القاطعة التي لا تقبل النقض، ولا الإبرام، ولا مجرد المناقشة كما يفهم من لادراية له بالعلم، ولا حس عنده للمعاني، ولا ذوق يجري في دمه من باب المروءة والإنسانية ومن تلك المعاني أن يبسط المضيف إلى ضيفه في الكرم دون تكلف، فإن أبا الهيثم التيهاني - رضي الله عنه - ما جاء بصنوف التمر وألوانه الثلاثة: الأصفر والأحمر والأسود عن كلفة، وإنما كان ذلك ميسراً له ومن نخله، وفي الحديث: ((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)) وقد ورد أنه - صلى الله عليه وسلم - نهى عن التكلف للضيوف، ومعناه كما يقول الناس ((الجود بالموجود))، وحين قال له - صلى الله عليه وسلم - هلا انتقيت رطباً ؟ قال: ليأكل كل مشتاه يا رسول الله، وفي ذلك أبلغ رد على من زعم أن الذي يأكل مايشتهي مذموم، بعيد عن السنة فالله عز وجل يقول ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ

الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ الأعراف: ٣٢

ومن الدروس المستفادة عدم إرهاب المضيق فإن النبي - صلى
الله عليه وسلم - حين رأى أبا الهيثم يمسك بالسكين ليذبح لهم شاة قال
له: إياك والحلوب أي ابتعد عن الحلوب من الشياة، وبعض الناس
لا يعينهم هذا الأمر إنما يعينهم أن يأكلوا وإن خربوا بيت من أضافهم !

(١٦) حبيبة بنت سهل

حبيبة بنت سهل الأنصارية، كانت زوجة لثابت بن قيس ابن
شماس، واختلعت منه، قال لها - صلى الله عليه وسلم - أتردين عليه
حديقته ؟

قالت: نعم .

وهذا هو الحوار نفسه الذي كان مع جميلة بنت أبي ابن سلول،
التي كانت زوجة ثابت بن قيس واختلعت منه أيضاً
قال أهل السير والتاريخ: إنهما الاثنان اختلعتا منه، وكان قاسيا
على المرأة، أي أن الخلع كان بسبب شدته، لا دمامته كما هو شائع عند
كثير من الناس، وقد كان ثابت بن قيس بن شماس وجيهاً، وكان خطيب
النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وفي رواية ذكرها النسائي في سننه أنها ذهبت للنبي - صلى الله
عليه وسلم - في الغلس، قبيل الفجر، خرج رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - بصلاة الفجر فوجد شبهاً؛ فقال: من ؟ قالت: فلانة لا أنا ولا
ثابت بن قيس يا رسول الله، والله لا أذمه في خلق ولا دين، وإنما أكره
الكفر في الإسلام، وفي ذلك ثلاثة دروس مهمة .

الأول: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يقل لها: أهذا وقت
تأتين فيه ؟ ليس للنهار عينا، عودي إلى بيتك وارجعي إليّ في
الضحى، أو بعد صلاة العصر وإنما استمع إليها، وواساها، وسألها ماذا
أعطاك ؟ فقالت: حديقة؛ فقال: أتردين عليه حديقته ؟ قالت: نعم، وانتهت
المشكلة .

إن صاحب الحاجة خصوصاً النفسية يعيش في نار، تتقد في قلبه،
فهو فورق العينين لا ينام فإذا لجأ إلى من بيده حل مشكلته لم يراعى

(١٧) أبو اليسر: كعب بن عمرو

صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي شهد معه المشاهد كلها، وكان قصيراً، وهو الذي أسر العباس بن عبد المطلب يوم بدر، وقد قيل للعباس: كيف أسرك، ولو تناولته بكفك لوسعته كفك؟ قال: نعم، رأيته كذلك، فلما دنا مني إذا بي أراه في عيني أعظم من الخدمة، اسم جبل في مكة، فسبحان الله .

ما أجمله بالليل، وقد قال عليه الصلاة والسلام من رجل يعشينا من هذه الشياة؟ فقال: أنا وقام وذبح وسلخ وشوي، فقال اللهم متعنا به فكان آخر من مات في الجماعة مات سنة ٥٥ هجرية.

كان لأب اليسر دين على رجل، فلما جاء أجله ذهب إليه، فقال المدين: قل لي له إني لست موجوداً يخاطب جاريته، فسمع أبو اليسر صوته فناده: اخرج إليّ، فقد عرفت صنيعةك فلما خرج قال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال العسر قال: الله؟ قال: الله فقال له: اذهب فلك ما عليك إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: من أنظر معسراً أو وضع له كان في ظل الله يوم القيامة.

إن مثل هذا الصحابي مفقود في زماننا، فهو الذي أنظر مدينه، وترك له ما عليه؛ لا لمروءة ورثها عن أبيه وجده وإنما عن حديث سمعه من النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو من أنظر معسراً أو عفا عنه أظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، آمن به وصدق، واستقر نوره في قلبه، وصار عقيدة معقودة فيه، وقد جاءت الفرصة، ولا شك أن الأنظار في ذاته محققاً ذلك الفوز العظيم، الذي وعد به رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى والفرق بين هذا الصحابي الكبير وبين كثير من الناس أنه حفظ، وعمل بمقتدى ما حفظ، أما غيره فحفظ الكثير، لكنه لا يعمل به فكثير من الناس يحفظ الكثير من

الوقت المناسب؛ لأنه أشبه ما يكون بالبيت الذي يحترق وعلى العقلاء أن يبادروا إلى إطفاء تلك النار؛ فليس من العقل أن يقال للبيت: ألا تحترق إلا في هذه الساعة، أو: أهذه ساعة تحترق فيها! وصاحب الحاجة أشد خطراً من احتراق البيت أولاً لأنه إنسان، والنار في صدره تحرق معانيه وثانياً لأنه قد يحرق ألف بيت، وقد يقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق، وقد يفسد في الأرض، والله در شوقي حين قال:

إن ملكك النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء

والثاني: أن حبيبة بنت سهل لم تدم زوجها وإن كرهته وهذا الذي أطلق عليه ((النبل في الخصومة)) وقد توارى هذا المعنى، فصرنا إذا كرهنا شخصاً ذمناه ديناً وخلقاً وأطلعنا فيه القلط الميتة، فخربنا فيه كل شيء، ومن النساء اليوم من نسمعها إذا أخذت على زوجها مأخذ ما، بأن يكون قد تعرف على امرأة أخرى، نسمعها تقول هو لا يصلى، ولا يتقى الله، فإن قيل لها: لكننا رأيناها يصلى تقول ((ويجوز: تنقل)) إنما صلاته رياء وصدقته سمعة، وحجه من أجل اللقب، وهكذا، والنبل في الخصومة معناه ألا ينكر الخصم صفات المعروف في خصمه، وألا يكون على طريقة ((يا رايح أكثر من الفضايح)) .

والثالث: أن تحمل الإنسان شيئاً فوق طاقته سوف يؤدي به إلى كفران حسناته، وهى اليوم لا تدمه في خلق ولا في دين، فمن يضمن ماذا تقول غداً، وسوف يأتيها زوجها بالخيرات كعادته لكنها مع البغض لا تعترف بهذه الخيرات، فتكفر بذلك العشير، والعشير هو الزوج، وقد اطلع النبي - صلى الله عليه وسلم - على النار فوجد أكثر أهلها من النساء لأنهن يكفرن العشير، تقول ما رأيته منه خيراً إذا وجدت منه شيء أساءها، وهى لا تريد ذلك؛ لأنها مسلمة .

والمسلمون حريصون على طلب الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل.

النصوص، لكنه حفظ كما يقول علماء التربية الحفظ البنكي، وما أكثر الذين يبكونك إذا تحدثوا عن مال اليتيم، فإذا أفرغوا ما لديهم من محفوظات رجعوا، فكانوا أول من يأكل مال اليتيم، وما أكثر الذين يحدثونك عن جمال الإسلام، والنظافة، ولين الكلام، ومكارم الأخلاق فإذا انتهى الحديث وجدتهم أبعد ما يكونون عن الجمال والنظافة ولين الكلام ومكارم الأخلاق، وتلك هي المفارقة بين الأقوال والأعمال ولم تكن هذه يوماً من شيم الصحابة، ويبدو أنها كانت في عروق الناس قبل الإسلام، بدليل أن الأعشى الشاعر حين ركب ناقته قاصداً النبي - صلى الله عليه وسلم - ليعلن إسلامه قابله الصناديد من الكفار، وسألوه إلى أين؟

قال: إلى محمد؛ فإنه قد بدا لي أنه على الحق وسوف أتبعه؛ فقال له:

أو تدري أنه يحرم الزنا ؟

قال: لا حاجة لي فيه.

فقالوا له: أتدري أنه يحرم الخمر: فقال:

أما هذه فلا غنى لي عنها، فلأرجع أروى نفسي منها هذا العام، ثم أرجع إليه، وعاد الأعشى وقبل أن ينتهي العام وافته المنية، فمات على شركه إذاً كان الأعشى يعلم أنه متى أسلم التزم

ونحن في حاجة إلى هذا الالتزام الذي يبدو تطبيقاً عملياً، فحيث ترى وتسمع، ولكن على طريقة تراسل الحواس، فأنت ترى صوتاً جميلاً قد تجسد وتسمع عملاً ناطقاً بإبداع، ينطق لسان حاله فيؤثر فيك، والله در عثمان - رضي الله عنه - حين قال: إن الناس في حاجة إلى أمير فعّال لا إلى أمير قوّال ونحن جميعاً في حاجة إلى أن نرى أعمالاً فقد شبعنا أقوالاً.

(١٨) حسانة المزنية

كان اسمها (جثامة)، فقال لها - صلى الله عليه وسلم - بل أنت حسانة .

كانت صديقة خديجة، وكان - صلى الله عليه وسلم - يصلها قالت عائشة: جاءت عجوز إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال من أنت ؟ فقال: أنا جثامة المزنية، قال: بل أنت حسانة، كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز كل هذا الإقبال ؟ قال: إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان .

وحسن العهد من المعاني الغائبة، فإن الناس يكونون على العهد متى كانوا معاً جيراناً ونحو ذلك فإذا تباعدوا فلا عهد، ولا صلة، وتلك مأساة، سببها عند الناس أن شواغل الدنيا كثيرة، وأن كل إنسان مهموم بتكالييفها، وأن لقمة العيش صعبة، وغير ذلك مما يجمعه لفظ واحد وهو الظروف، وتلك الظروف ما كانت وليدة زمان دون زمان، وإن كانت في زمان أصعب منها في زمان آخر، لكن الأصعب من هذه الظروف بلا شك نفسيته صعبة، كانت تظهر الوفاء إلى حين، وتتظاهر بالأخوة إلى أجل ما كان مسمى، ولكن كان وفقاً على الظروف.

أذكر أن إحدى القنوات الفضائية قد ألغيت من على وجه الفضائيات والأقمار الصناعية، فأثر مديرها أن يجمع كل من عملوا بها على حفل عشاء وتوديع، فالتقى الناس، وقد شرفت أن أكون بينهم، لأنني ممن عمل معهم، وتبادل الحضور الكلمات، وكلهم أثنوا على تلك الفترة من الزمان التي كانوا فيها معاً، وكانت تقدم الحفل إحدى المذيعات، وقالت: يا جماعة، لدينا مفاجأة، لقد قررنا أن يكون اجتماعنا

لا يعرف له المؤرخون نسبا ولا قبيلة، إنما ورد ذكره في حديث

ابن عمر الذي رواه نافع

أن سارقاً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقطعه في ليلة شديدة البرد، وكان هذا السارق غريباً، ليس له بيت بالمدينة ولا أهل، فأواه فاتك، ضرب عليه خيمة، وأوقد له نويرة (نار صغيرة)، وأطعمه، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: ما هذه النار؟ فقيل يا رسول الله إنه فاتك أوى المصاب المقطوع فقال عليه الصلاة والسلام .

((اللهم اغفر لفاتك، كما أوى عبدك هذا المصاب)) .

هنيئاً لفاتك بهذا الدعاء الجميل .

وهنيئاً له هذا العمل الذي خلده في سير الصالحين ولعلنا نتعلم في هذا السياق الرحمة بمن أخطأ وتاب ولعلنا نتعلم الدرس، درس الرحمة بالقرب والمحتاج ومن لا مأوى له.

إن مثل هذا الفاتك، فتك الكرب والجرح، وأوى رجلاً غريباً جريحاً.

قطعت يده، لم يقل إنه حرامي، أو لص، أو يستحق أن تقطع يده الأخرى، فليذهب في داهية، أو إلى الجحيم كما يقال في الأفلام الأجنبية، إنما نظر إلى رائع مشاهد، يقول هذا محدود، وقد أقيم عليه الحد، والحد كفارة، والله واسع المغفرة وهو الآن ضعيف، كم مثل هذا المحدود، ما قطع يده حد، وإنما قطعت أنفاسه ظروف قاسية، فهو مدين، مسكين، لديه أطفال، وحياته فواتير مؤجلة، لا يدري في أي يوم يعيش. استوت عنده الأيام، وليس فيها من شعاع أمل، وهو يرى غيره من الناس في

كل شهر، ولعلكم توافقون، وهتف الجمع ما عداي، وقالوا الله أكبر، ولما جاء دوري في إلقاء كلمتي علقت على هذا فقلت: أعلم علم اليقين أنه لن يكون لنا اجتماع شهري؛ لأننا الآن في حالة، وسوف تنتهي الحالة، وتبرد العاطفة، وكل ما أوصيكم به أن تذكروا هذه الليلة وما قبلها، وألا يحمل بعضكم في صدره لأخيه إلا خيراً، ومرت ثلاثة أعوام، وما اجتمع الناس يوماً، التقطوا الصور التذكارية، وعملت أجهزة المحمول في تلك الليلة أكثر من غيرها ما بين التقاط صور، وتبادل أرقام وتسجيلات فيديو والشاهد من هذه القصة يكمن في الكلمة التي قلت (حالة) ففيها تفسير تلك الظاهرة، فهناك فرق بين أن تتطلق من حالة كسحابة صيف، وأن تتطلق من معنى دائم، هو مبدأ لديك، يسرى في دمك ويجرى في عروقك، وقد قال لي أحد الذين عملوا معي يوماً: إن لقاءنا هذا صدفة، فسألته عن هذه الكلمة؛ فقال: لأننا لسنا أصحاب مؤسسة إعلامية لها منهج وهدف ورسالة وخطة دائمة، لقد اجتمعنا على عمل، بانتهاء هذا العمل سوف نفترق إلى أن تجمعنا حالة بلغتي أو صدفة أخرى بلغته ومن يومها والفكرة في ذاتي ما زالت قائمة، سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - كما روى البخاري - عن أحب العمل إلى الله فقال: أدومه، والصلاة في الإسلام خمس مرات كل يوم وليلة على المريض والسليم والمسافر والمقيم وينبغي أن تكون المودة بين الناس كالصلاة لا تسقط أبداً وزواج المتعة محرم في الإسلام؛ لأنه مؤقت بوقت والأصل فيه الدوام والطلاق عارض إذا استحالت الحياة وقد يستحيل اللقاء بين المتوادين المتعاطفين، إلا أن المودة بينهم غير مستحيلة فهي مسافرة في دمائهم متى التقوا وجدوها وجدوها، وهناك فرق بين أن تكون رفيق القلب حالة وبين أن تكون رفيق القلب دائماً!

(٢٠) الربيع بنت النضر

ترف، إنه يسكن فى القاع فى منزل متهدم ويشاهد من يسكن فى المباني الرفيعة، ويركب السيارات الفارهة، وينفق الملايين والله عز وجل يقول فى هؤلاء: ((وفى أموالهم حق للسائل والمحروم)) وإذا سألت هؤلاء وقلت لهم: أين حق هذا عندكم؟ قالوا: نحن نعمل الكثير، ونتصدق بالكثير، وهم على صواب لكنها عشوائية الإنفاق، هناك خمسون مسكيناً ينفق عليهم خمسة آلاف غنى، وهناك خمسة ملايين من المساكين لايسأل عنهم أحد بسبب عشوائية الإنفاق، لذا كان على الدولة أن تتولى جمع الزكاة والصدقات، لأنها قادرة على النظام وهى النظام، تحصر المحتاجين وتعرف أعدادهم، وما يملكون وقد تفكرت فى صدقة الفطر وحدها فوجدتها تربو على ستمائة مليون جنيه، تكفى لإصلاح الكثير من أحوال البلاد والعباد وهى تغنى عن ضرائب كثيرة، إذا أضفت إليها زكاة الزروع والثمار، وعروض التجارة والذهب والفضة والمال، وسوف يعمل على جمعها وتوزيعها ملايين من الخريجين، فأى مانع يمنعها من ذلك، ولتضم إلى وزارة التضامن الاجتماعى أوالى وزارة المالية، وهى توظف الحس الدينى فى نفوس الناس، واسأل أى إنسان أى العبارتين أسرع دخولاً إلى قلبه هات ضريبة، أو هات زكاة مالك لاشك أنها الثانية، التى هي شرع الله، وركن الإسلام الملازم للصلاة ويجب أن نهتم بتلك الفكرة، وأن نلح فيها إلحاحاً لأنها تسفر عن خير الفرد والدولة، ثم انظر إلى هذا العبد الذى حمله الدعاء لرجل كان اسماً على مسمى، وهو فاتك، ونحن نريد هذا المعنى أن يكثر، نريد فاتكا لعل الناس ولا نريد فاتكاً يفتك بهم، فيكون أسداً فاتكاً عليهم، ونعامه على عدوهم، نريد طبيباً ماهراً يفتك بالمرض فيعالجه ومعلماً ناجحاً يفتك بالجهل الذى أطبق علينا، وهو سرا أسرار تخلفنا .

من بني عدى بن النجار، أخت أنس بن النضر، وعمة أنس بن مالك بن النضر، وأم حارثة بن سراقة شهيد بدر، قالت للنبي - صلى الله عليه وسلم - أخبرني عن حارثة، فإن كان فى الجنة صبرت واحتسبت، وإن كان غير ذلك اجتهدت فى البكاء، فقال لها: إنها جنات وإنه أصاب الفردوس الأعلى .

فانظر كيف يكون معرفة المصير إلى الجنة الله الواسعة سبباً فى الصبر والاحتساب لا شك أن مثل هذه المرأة أسوة.

ولها قصة مشهورة حيث كسرت ثنية امرأة فأبى أهلها إلا القصاص، ورفضوا الأرش فقال أخوها: أو تكسر ثنية الربيع؟ والله لا تكسر فقيل أهلها الأرش، فقال عليه الصلاة والسلام ((رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره)).

نعم رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره الله - عز وجل - أى لا يأبه له الناس ولا يقيمون له وزناً، وليس فى ذلك دعوة إلى أن يكون المسلم أشعث أغبر بل عليه أن يرجل شعره وأن يكرمه، وأن ينظف بدنه، وثوبه ونفسه من الأدران، فالدين النظافة والطهارة، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين، قال العلماء يحب التوابين من الذنوب، والمتطهرين من النجاسات، لكنه المعنى الذى لا يتغير، وهو أن الله لا ينظر إلى الصور وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال .

وفى حديث الربيع بنت النضر - رضى الله عنها - ما يهون على الناس مصائب الدنيا، ولست أعنى بالمصائب الموت وحده، ووداع الأحبة الذين إذا علمنا أنهم فى واسع الجنة، وعظيم نعيمها خف ألم الوداع فى صدورنا، وإنما أعنى كل عمل من شأنه أن يدخل صاحبه الجنة، ثم يجد العامل ما يؤرقه من جحود الناس، وأحياناً يكون هذا

الجحود أشد ألماً من الموت، ولا علاج لهذا الجحود إلا أن يحتسب المرء ما عمل عند الله - عز وجل - فما عند الله - عز وجل - خير وأبقى، قال تعالى ((ما عندكم ينفد وما عند الله باق)) وفي كتاب ربنا تعالى ((ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً)) ثم قال للأبرار :

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۖ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ۝١٠﴾ الإنسان: ٩ - ١٠
وقال الله - تعالى -

﴿ فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ۝١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ الإنسان: ١١ - ١٢

وخذ من أمثلة ذلك كل معروف يصنعه الإنسان لغيره فإذا تنكر له ذلك الذي عمل من أجله المعروف ضايقه ذلك بلا شك، بل كان ذلك غصة في قلبه فإذا استحضر ذلك الصانع للمعروف ثواب الله عليه استوي عنده أن يشكره الناس، وأن يكفروه؛ لأنه لا يبتغى بمعروفه إلا وجه الله - عز وجل - ولأن هذا الدين دين المعادلة قال عليه الصلاة والسلام ((لا يشكر الله من لا يشكر الناس))؛ لأنه ليس بوسع أى إنسان أن يقاوم هذا الجحود، إنما يقاومه من يستحضر صورة الثواب، ولذا عالج الإسلام القضية من خلال المعادلة، بأن يقول للقادر على فعل المعروف: اصنع المعروف، ويقول لمن صنع له معروف: اشكره؛ فذلك ضمان لاستمرار المعروف بين الناس، وهذا لا يتنافى وابتغاء الثواب من الله - عز وجل - إنه علاج نفسى لا بد منه فإن اختلفت المعادلة بأن جحد الطرف الثانى كان فى ثواب الله - عز وجل - الخير الكثير، والعوض الكثير

ولله در القائل:

لكل شيء إذا فارقتة عوض وليس لله إن فارقت من عوض
وما أكثر الأعمال الصالحة التي تؤدى إلى الجنة لو احتسب العاملون ثوابه عند الله، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

(٢١) قيس بن سلع

أنصارى، من أهل المدينة، كان أكثر أهله مالاً ولذلك قصة .
هي أن إخوته شكوه للنبي - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: أنه يبذر ماله يا رسول الله
فاستدعاه، وقال له: يا قيس، ما بال إخوتك يقولون إنك تبذر مالك!
قال يا رسول الله أنا أخذ نصيبي من التمر، وأنفقه فى سبيل الله وعلى من صحبني فضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صدره وقال له

أنفق قيس ينفق عليك

وأنفق قيس؛ فصار أكثر أهله مالاً رضي الله عنه، إنه درس الإنفاق فى سبيل الله الذي لا يعود على المنفق إلا بخير .
صحيح أن المفسرين نقلوا عن محاهد رحمه الله - أنه قال: مَنْ كان ذا مال يكفيه فليقتصد؛ فإن الرزق مقسوم وقد يكون نصيبه ضيقاً، فينفق كالموسع عليه، فيضيع جميع ماله، ويبقى عمره فقيراً، ولا يعتد بقوله - تعالى - ((وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين)): فإن ذلك فى الآخرة.

وذلك ليس معناه أن يمسك عن الإنفاق من كان عنده ما يكفيه؛ وإنما معناه ألا ينفق الفقير كالموسع عليه، فيضيع ماله، وقد قال الله تعالى - ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ الطلاق: ٧

وقد مرض سعد بن أبى وقاص، فشفاه الله فأراد أن يخرج من جميع ماله، وأن يتصدق به أجمع فلم يوافق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال أتصدق بنصفه يا رسول الله ! فقال: لا فقال: أتصدق بثلثه؟

قال عليه الصلاة والسلام: والثالث كثير، ومن قوله _ صلى الله عليه وسلم _ والثالث كثير رأى بعض العلماء أن التصديق بالربع أولى؛ لأنه أقل من الثالث، وحساب الزكاة في الإسلام معروف، من حيث الصنوف، والنصاب، والزمن وقد قال تعالى ((وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا)) والناس يسرفون في غير الزكاة وهي ركن الإسلام، والصدقات، إنما يسرفون في الملذات وتحقيق رغبات النفس، وهم مابين مسرف على نفسه فقط بخيل على ولده وأهله، وبين مسرف على نفسه وأهله مقتر على أرحامه إن لم يكن قاطعاً لهم، لا يعرف طريقاً إلى محتاج أو مسكين، إلا في المناسبات، وإن قلت له: أخرج زكاة مالك أجاب بقوله: والله أنى أخرج الكثير لوجه الله، ولا أحسب هذا، لا يشفع له، وبلغة الفقه لا يجزئه، فما زالت الزكاة ديناً في رقبته؛ لأنها لا تخرج بالبركة وإنما تخرج بحساب معلوم، وبنية، فالأعمال بالنيات أول حديث لرسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ رواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

ونحن لا نسأل كل إنسان أن يسرف في الصدقات وإنما نسأل كل إنسان أن يطعم المساكين على قدر طاقته، فلوهم كل إنسان بإطعام مسكين واحد لما وجد أكثر الناس مسكيناً واحداً كي يطعموه؛ وإطعام مسكين واحد بالنسبة إلى كثير من الناس لا يكلفهم جهداً فضلاً عن السرف، كما أنه لو تعاون جميع سكان شارع على نظافته لما وجد أكثرهم شيئاً من الأذى يدفعه عنه، إنما تتراكم القاذورات ويكثر الجائعون بسبب إحجام كثير من الناس عن فعل الخير .

(٢٢) خبيب بن عدى

قتله المشركون غدرًا بمكة، لينتقموا من المسلمين في قتلهم ببدر، وحين صعدوا به إلى التنعيم ليقتلوه ونصبوا له الصليب سألوه ماذا تريد قبل أن تفارق الحياة ؟

قال: أصلى ركعتين

فتركوه يصلى، فصلى ركعتين خفيفتين، وعاد إليهم قائلاً: لولا أن تقولوا: أطل في صلاته خوفاً من الموت لأطلت، ثم دعا عليهم

اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً،

اللهم أبلغ عنا رسولك السلام

السلام عليك يا رسول الله، روى أن النبي _ صلى الله عليه وسلم _ قال وهو بين أصحابه _ عليك السلام يا خبيب، قتلته قريش لابد أن يكون من الدين مشتهى في حياة المتدين، بكى معاذ عند الموت لأن مجالس العلم سوف يغيب عنها وبكى غيره عند الموت على قيام الليل، ما بكى أحدهم على صغار له يخاف عليهم؛ لأنهم في ذمة الله

لم تكن الركعتان اللتان صلاهما خبيب بن عدى - رضي الله عنه - منجاة له من القتل، وما صلاهما من أجل أن ينفذه الله من أيدي الكفرة قساة القلوب، وإنما جاء مسرعاً إلى حتفه، وهو يقول: لولا أن تقولوا: أطل في الصلاة خوفاً من الموت لأطلت، ها أنا ذا، وقتل وإنما كانتا منجاة له من النار بإذن الله الواحد الغفار كان آخر عهده بالدنيا أن سجد لله رب العالمين، وكأنه اشتاق من الدنيا إلى شيء، فتذكر أجمل ما فيها، لم يتذكر فاكهة، ولا لحماً ولا مكاناً ولا خليلاً أحبه وأراد أن يكتب له رسالة وداع أو ينظم من أجله أبياتاً من الشعر، وإنما تذكر الصلاة تلك الصلة بينه وبين ربه، وكأنه حين سجد ووضع جبينه على الأرض،

وقال كما علمه المعصوم - صلى الله عليه وسلم - ((سبحان ربى
الأعلى)) هتف قلبه، وقال يارب أنت الأعلى من كل شيء وقد اشتقت
إلى عليين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَّتٍ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ
۝١٩ كِتَابٌ مَرْفُوعٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ ۝٢١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝٢٣
تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَمُهُ مِسْكَ وَفِي
ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٦﴾ المطففين: ١٨ - ٢٦

فماذا يقول تارك الصلاة، الذي يناديه ربنا تعالى خمس مرات في
اليوم واللييلة ((حي على الصلاة حلى على الفلاح)) اى أقبل على
الصلاة واعلم أنك حين تقبل عليها إنما تقبل على الفلاح، ومع ذلك لا
يلبى نداء ربه، فما عسى أن يشتهى لو أنه حكم عليه كما حكم على
خبيب بن عدى - رضي الله عنه - وأي شيء يشتهى فينفقه عند لقاء
ربه، وهو يرى أن الموت يأتي بغتة، وأنه ربما أصيب فى حادث سيارة
فخرج من بيته إلى الآخرة !

لا شك أن الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن
هدمها فقد هدم الدين، ولست أدري كيف يطمئن الناس إلى هادم الدين،
الذي أخذ معولاً من نفسه الأمانة بالسوء، وقضى به على دينه، كيف
يعاملونه ؟ وكيف يزوجونه ؟ وكيف يتسنى لهم أن يؤثروه على غيره؛
فإن قيل إن كثيراً من المصلين لا أمانة عندهم ولا وفاء وهذا برغم أنه
لا يصلّى أمين وفي! فالجواب أن أحداً لم يقل: أقبلوا على أى مصل،
وإنما عليكم اختباره ومعاملته حتى تعرفوه، لكن ليس تارك الصلاة
مفضلاً على مصل بحال من الأحوال، ترى هل فى حياة كل منا شيء
فى دينه عزيز على نفسه !.

(٢٣) أم حكيم بنت الحارث

زوج عكرمة بن أبى جهل، أسلمت يوم الفتح، واستأمنت النبي
- صلى الله عليه وسلم - لزوجها عكرمة، وكان قد فرّ إلى اليمن
وخرجت فى طلبه، فردته حتى أسلم، وثبتا على نكاحهما .

قتل عكرمة، بأجنادين، فاعتدت أربعة أشهر وعشراً خطبها خالد
ابن سعيد، وعقد عليها على أربعمئة دينار ' فلما نزل الناس مرج
الصفّر، أراد أن يعرّس بها، فجعلت تقول: لو أخرت الدخول حتى يفض
الله هذه الجموع فقال خالد: إن النفس تحدثني أنى أصاب فى جموعهم
فقالت: فدونك، فدخل بها عند القنطرة التي بالصفّر وأولم عليها، فلما
فرغوا من الطعام حتى صفت الروم صفوفها وبرز رجل منهم يدعو إلى
البراز، فبرز إليه أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فنهاه أبو عبيدة فبرز
له حبيب بن مسلمة، فقتله حبيب، ورجع إلى موضعه، وبرز خالد ابن
سعيد فقاتل فقتل، وشدت أم حكيم عليها ثيابها وتبدت، وإن عليها أثر
الخلق، وقتلت يومئذ سبعة بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد معرساً
بها .

تقدم أم حكيم نموذجاً راقياً للمرأة المسلمة، التي حرصت على
إسلام زوجها، واستأذنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يؤمنه،
وأن تأتى به مسلماً، وقد كان .

وحين تزوجت خالد بن سعيد وهو من السابقين فى الإسلام،
ورغب خالد فى الدخول بها، والمعركة قائمة، فلما رأت أن يؤجل
لانتهاه اللقاء بين جند الله وجند الشيطان حدثها بأن نفسه تقول له: إنه
شهيد فى هذه المعركة عندئذ قالت له: دونك أى هياء ودخل، واستشهد
فصدق حديث نفسه ولو أن امرأة فى زماننا، عاشت هذا الموقف لكان

لها رد مختلف، إذ إن المتصور أن تقول له بادئ ذي بدء: أعندك دم؟ هل تشعر بأنك عاقل أم بك جنون! نحن في فرح أم في جرح! كيف تفكر في الدخول ونحن في ساحة القتال! هل ترى تلك الساحة فندقاً؟ أم صالة أفراح! وهل لديك رغبة في معايشرة النساء ونحن مقبلون على خطر!

ثم تقول: ولنفرض أن حديث نفسك صدق ودخلت بي الليلة ومات غداً شهيداً عند ربك أأتكون عنده حياً ترزق وتتركني أنا أرملّة من بعدك أمد يدي إلى الناس وإن كانت أرق من ذلك قالت له بلطف: من أجل خاطري أجل هذا الذي تفكر فيه، وأنا معك، إلى أين أذهب، هل نسيت أنني زوجتك، ثم إن الذي دار بخلدك إنما هو حديث النفس، ولا دليل عليه، وفأل الله ولا فألك وإن شاء الله يكتب لنا النصر، ونعود إلى المدينة أو إلى الشام، ندخل هناك، وتهدأ الدنيا من حولنا، وحّد الله، وصل على حبيبك النبي - صلى الله عليه وسلم - يعنى في النهاية لن تلبى له طلباً.

أما أم حكيم فقد لبث طلب زوجها وأسعدته بها، كما أسعده الله - تعالى - بالشهادة، وكم في الناس من معطل للزواج وغيره لأدنى ملابس، بلغة اللغويين، ألسن ترى الناس يقولون بعد رمضان والعيد، أو بعد أن يعود ابن عمها من السفر، أو بعد أن يمر عام على وفاة خالها أو أبيها، أو بعد أن تنتهي رسالة الدكتوراه، إلى غير ذلك من الأسباب التي تعطلت بها زيجات وأعمال صالحات، ولو عرفنا أن تأجيل الفرح لغير عذر حقيقي من الكوارث، فقد يحين الأجل وقد يكون القادم من الزمان أسوأ فلن نفرح أبداً!

(٢٤) عاقل بن البكير

أسلم قديماً وفي دار الأرقم بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألته رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

ما اسمك؟

قال: غافل

فقال له: بل أنت عاقل

شهد بداراً هو وأخوته: عامر وخالد وإياس ومات عاقل بها شهيداً وهو ابن أربع وثلاثين سنة - رضي الله عنه -

دجل من زعم أن ابنه سوف يعيش إذا سماه ((شحاتاً)) و((مشحوتاً)) و((شحاتة)) وغير ذلك، ومن ادعى الغباء حتى لا يحسده الناس إذا عرفوا ذكاه، وغير ذلك

ودجل أن يطلق الرجل على ولده لقب الغبي حتى لا يحسده الناس على ذكائه، فيرسب بعد أن كان متفوقاً، ودجل أن نقول في الطفل الذي بدا نبوغه مبكراً: إنه ابن موت، فهل فهمنا من ديننا أن الحياة حياة الأغبياء

وأن الذي سوف يعيش من أطفالنا هو الأبله الأخرق العاجز عن النطق، الذي لا إدراك عنده ذلك الغبي الذي يحتاج إلى عام من أجل أن يحفظ جدول الضرب فما عسى أن نحتاج من أعوام من أجل أن يفهم المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة واللوغاريتمات، وجداول الكيمياء، وإقليدس، وفيثاغورث، فهل كتب الله والعياذ بالله ذلك على أبناء المسلمين دون سواهم الذين يولدون عباقرة، وينهون دراستهم الجامعية

وهم تحت العشرين، وهم أجيال ممدودة لأجيال سبقتهم اخترقوا الآفاق، وعمرُوا الدنيا، وقدموا للعالم من حولهم تقنيات علمية رفيعة المستوى !
لقد سمى النبي - صلى الله عليه وسلم - غافلاً عاقلاً لأن هذا الدين لا يؤمن به إلا العقلاء ((إنما يذكر أولوا الألباب)) ولا يرفع رايته إلا العلماء ((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون))

ولا يخشى الله حق خشيته إلا العلماء ((إنما يخشى الله من عباده العلماء)) وما اعتكف على كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلا العقلاء الفقهاء الذين استخرجوا منها الأحكام، وأعملوا عقولهم فكان القياس

ومن أهم الدروس المستفادة من ذلك ما أكدته الله - تعالى - ﴿ أَمَّا يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٥٤

نريد أن نقول للناس الذين يخافون الحسد ويفزعون: إن الحسد لا يذهب بالنعمة فاطمئنوا إنما يذهب بالنعمة أحد الأمرين الأول: سوء التعامل معها، كالذي لا يعرف كيف يقود سيارة وإذا به ينطلق بها إلى حتفه

والثاني: الجحود بها، وقد قال الله - تعالى - ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

ولا خوف إلا من حاسد يتعجل ذهاب النعمة فيقوم بإتلافها بيده بعد أن يؤس من نزول صاعقة عليها من السماء، وهذا هو الذي قال فيه ربنا ((ومن شر حاسد إذا حسد)) ويكفيك أن تسأل الله وأن تستعيز به من شره كما أمرك، وأن تتصدق؛ فإن الصدقة تحفظ النعمة، وأن نشكر الله -

عز وجل - فإن الشكر يزيدُها، قال تعالى ((وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ إبراهيم: ٧
ومن أهم الدروس المستفادة أن لعاقِل بن البكير لوحة شرف في إسلامه أنه شهيد بدر، فما لوحة الشرف التي لدينا ! وأمامنا العفو عمن ظلم وصلة من قطع وعطاء من منع !

(٢٥) زينب امرأة بن مسعود

صحت يوماً على نية أن تتصدق، فناداها زوجها ابن مسعود:

إلى أين يا زينب ؟

قالت: أتصدق

قال: على وعلى أيتام في حجرى!

قالت لا، حتى أستأذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وذهبت

إليه -صلى الله عليه وسلم- وعلى بابها وجدت امرأة أخرى، حالها كحالها، أى أنها تريد التصدق على زوجها، فلما دخلنا عليه -صلى الله عليه وسلم- أذن لهما، وقال لكما أجران، أجر الصدقة وأجر الصلة.

ويبدووا بلا شك أن هناك اهتماماً كان بتلك المسألة، مسألة صلة الزوج والتصدق عليه

وحديث زينب امرأة بن مسعود من الأحاديث التي تبعث الندى فى الأرض الموات، حيث إن صدره يعالج مأساة من مآسينا اليوم وهو الوقوف أمام من يريد الخروج من البيت لسبب ما من الأسباب، والإصرار على ألا يخرج، فقد صحت زينب -رضي الله عنها- وهى تريد أن تخرج لتتصدق، فما وقف أمامها زوجها وما قال: على الطلاق بالثلاثة لن تخرجي أو هات المال وأنا أتصدق عنك، أو إن خرجت فأنت طالق.

إن تصلب أحد الزوجين فى وجه صاحبه فى تلك اللحظة مما يؤدى إلى لحظة عمى، التي يكون فيها قتل فجأة، أو طلاق سريع، أراد شاب أن يخرج فوقفت زوجته أمامه، وأمسكت بمفتاح سيارته، وقالت له: لن تخرج قال: هاتى المفتاح ! قالت: لا، لوي ذراعها وحاول أن يأخذ منها المفتاح بالقوة، لكنها كانت قوية، تنازعا، فقالت: إن كنت

عازما على الخروج فطلقني، فقال على الفور: أنت طالق، وأخذ المفتاح، ومضى إلى حيث يريد، والحمد لله أن انتهى الموقف بطلاق، ولم ينتهه بقتل، فى لحظة العمى التي تتصلب فيها الأدمغة، والشرابين ويتوقف عندها الفكر.

ماذا فى أن تترك الزوجة زوجها يخرج، حتى تهدأ نفسه، ثم يعود هادئاً مطمئناً وقد ذهب ما به أو شىء مما به.

وماذا عليه لو تركها تمضى إلى حيث تشاء ما دامت قد عقدت العزم على قضاء عمل مشروع، لا فساد فيه ولا إثم .

ثم تأمل لجوء زينب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليحكم بينها وبين زوجها فى هذه المسألة ؟ فقد رأت أن الصدقة على زوجها أمر مستبعد، إنما تكون الصدقة على المساكين، أو على غير الزوج لذا احتكمت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- كما احتكمت إليه غيرها، الأمر الذي يدل على أن الإنسان عليه أن يستفتى قبل أن يقدم على العمل، والرغبة فى معرفة الجائز وعدم الجائز هي المارى بها إلى السؤال، وليست الرغبة فى عدم عطاء الزوج أصلاً، أنها تعطيه، وهى راغبة لكنها الصدقة هل تجوز له ؟ وقد جاء الحكم بالجواز فأعطت زوجها، وهذه المسألة معروفة بالمواساة الزوجة زوجها، وقد واست خديجة -رضي الله عنها- رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمالها، وظل يذكر لها ذلك عمره، فقال: آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ منعني الناس، رضي الله عنها وأرضاها، وما أطيب أن تواسى الزوجة زوجها متى كان فى حاجة إلى تلك المواساة التي هي من حسن العشرة ..

(٢٦) أبو نقادة الأسدي

جاء المدينة، ومعه ماله من الإبل، فلقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو لا يعرفه، فسأله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائلاً: ممن الرجل؟ فانتسب إليه فدعاه إلى الإسلام؛ فأسلم؛ فقال: يا رسول الله، مالي كذا وكذا، فخذ صدقته، فأخذ مني؛ فكنت أول من أدى صدقته من بني أسد

لكنه توقف، وقال: يا رسول الله، اطلب إليّ طلبة، فإني أحب تطلبها مني، فقال له - صلى الله عليه وسلم - ابتغ لي ناقة حلبانة ركبانة غير أن لا تولّه ذات ولد.

وخرج أبو نقادة الأسدي يبحث عنها في إبله، فلم يجدها، فأخذ يبحث، حتى وجدها في غنم ابن عمه ظهير بن سناف، وقدم بها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقام عليه الصلاة والسلام يحلبها ثم ملأ القعب وسقاه، قال: فقمّت أحلبها فقال: دع داعي اللبن، وقال اللهم بارك فيها وفيمن منحها فقال أبو نقادة: ذهبت الدعوة إلى ابن عمي، ثم قال: وفيمن جاء بها يا رسول الله؛ فقال: وفيمن جاء بها .

ما أشبه موقف أبي نقادة الأسدي بالركن والناقلة أما الركن فواجب مكتوب، وأما الناقلة فذات طعم يعرف حلاوته من أراد أن يكون ذا فضل، إن بعض الناس يقول لك بعد أن يؤدي إليك ما طلبت .

هل تريد شيئاً آخر ؟

وقد يكون صادقاً فيما يقول، فلو طلبت شيئاً آخر أداه إليك وهو سعيد، وقد يكون ممن جرت هذه العبارة على ألسنتهم مثل قول البائع للمشتري الذي يسأل عن ثمن سلعته بدون أي شيء .

ومثل قول والد العروس لخطيب ابنته: نحن نجهزها، ونكسوها، ونوصلها إليك إلى باب البيت، وكلاهما غير صادق، فإن الذي يقول للمشتري: بدون أي شيء هيهات أن يعطيه إياها ناقص منه قرشاً واحداً، والذي يقول لخطيب ابنته ذلك يسلخه، ويطلب منه ما هو معهود معروف، وقد يعطل الزواج بسبب فوطة ناقصة، أو بسبب رغبة الخاطب في رحمته من مؤخر الصداق الكبير، لكنها عبارات المجاملة، شكلها جميل، وما وراء الشكل الجميل معنى قاس خطير من الشدة وعدم اللين

أما أبو نقادة فقد كان صادقاً، ولقد سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يطلب طلبة فإنه يحب أن يحققها له، ولم يقل له بعد أن أدى زكاة ماله: هل تطلب شيئاً آخر؟ ما قال ذلك من باب السؤال، وإنما سأل من باب الجزم والقطع فلما قال له: ناقة حلوبا أخذ يبحث عنها، فلما لم يجدها في إبله بحث عنها حتى وجدها عند ابن عم له، فساقها، فلما دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن منحها قال: ذهبت الدعوة إلى ابن عمي، فقال، وفيمن أتى بها يا رسول الله، فدعا - صلى الله عليه وسلم - لمن أتى بها، وظل الطابق مستوراً، فلم يسأله - صلى الله عليه وسلم - عن سبب قوله: وفيمن أتى بها، ولم يقل له وما معنى هذا؟ تراك أتيت بها من عند غيرك فأخلاقه - صلى الله عليه وسلم - معروفة، وصدق الله العظيم القائل فيه ((وإنك لعلی خلق عظیم)) ولو أن كل إنسان كلف بشيء أو كلف نفسه بشيء واجتهد اجتهد أبي نقادة لتغير وجه الحياة لأنه بإذن الله واجد متى جد واجتهد، ألسنت ترى كثيراً من الناس لا يبذلون جهداً وإن بذلوه ولم يجدوا لم يبذلوا زيادة وإنما قالوا ((بركة يا جامع))

(٢٧) أم سنبله الأسلمية

مشهد من مشاهد الوجدان، حيث جاءت أم سنبله وهى من البادية- بلبن، هدية للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأبت أزواجه أن يأخذنه منها، ومن رحمة الله- تعالى- بها أن جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ماذا معك يا أم سنبله ؟

قالت: لبن، جئت به هدية لك .

فقال: -صلى الله عليه وسلم- اسكبي، اسكبي وشرب منه -صلى الله عليه وسلم- وجبر خاطرها

قالت عائشة: إنها من الأعراب

قال: ليست من الأعراب، إنها أهل باديتنا، ونحن أهل حاضرتها.

قد يكون الإنسان أحوج إلى كلمة تُرويه منه إلى ماء يسقيه، وإلى كلمة تغذيه منه إلى لقمة تسد جوعته، وتملاً معدته، فكما أن الجسم فى حاجة إلى طاقة تمدّه بالحياة، والحرارة ليتحرك، فإنه كذلك فى حاجة إلى طاقة معنوية تمدّه بالتعلق بالحياة، والرغبة فيها، وعدم الصدود عنها، وحين تختفي تلك الطاقة المعنوية تحدث أمور خطيرة أهمها أن يتحول الإنسان إلى جثة بلا معنى ولا روح فإذا به يتحول بالتالى إلى جماد، فتكثر، الجمودية، والجمودية إذا سادت البشرية تحولت إلى قنابل، لافرق بينها وبين الأكوام المترابكة بعضها فوق بعض والتي تشتعل ذات يوم بسبب الغازات الكامنة تحتها فيظن الجاهلون بأن وراء تلك الحرائق جنأً، ويقولون لقد استدعينا المطافئ، فانطفأ الحريق، ثم شب من جديد، فلا بد أنه الجن، الذي يتربص بنا، كلما أطفأنا حريقاً أشعله من جديد، والسبب كما يقول أهل العلم أن الغازات ما زالت موجودة، ومع ارتفاع درجات الحرارة، تشتعل النار من جديد، وذلك تماماً كما يحدث

للإنسان الذي صار جماداً كلما أطعمته وحرقت دمه، وسممت بدنه اشتعل، لأنك تزيد قدرة على الاشتعال بمناولته المواد القابلة للاشتعال لم تعلمه، ولم تنوره، ولم تسكن ثائرة نفسه ولم تشعره بوجوده، فهو يراك عدواً له تتجاهل حقيقته، وتمده بالطعام وتؤذيه وتمن عليه فأنت تُربى بدنه لكي يقتلك .

ما هدأت نفس محمد بن سلمة، ذلك الصحابي الكبير إلا بعد أن قال له النبي - صلى الله عليه وسلم- عليك الجهد وذلك لأنه وعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وعداً كبيراً فلما عاد إلى بيته قال: ماذا قلت يا محمد للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهل أنت قادر على إنقاذ وعدك!

وقدم له- رضي الله عنه- الطعام فأبى جوفه أن يبتلعه، وقدم له الشراب فوجد فى حلقة عضه وفى قلبه صدود، وفى كبده جمود، ومر على ذلك ثلاثة أيام بلياليها حتى كاد يهلك، فلما بلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعرف السبب قال له: عليك الجهد، أى افعل جهدك، ولا عليك، عندئذ تفتحت شهيته المغلقة، واستطاع أن يتناول طعامه وشرابه، فانظر إلى أثر تلك الكلمة فى حياة صحابي كبير، لولاها لهلك وقد يحدث هذا الموقف فى حياتنا، لكن الموعد يقول للواعد تطلع تنزل، مالي شأن، لابد أن تفعل ما وعدني به، ثم يتمادى فى آذاه، ويقول له: حتى لا تكون على قدر كلمتك وحتى تتعلم الأدب، كلمات تزيد أسى وقتلاً إن كانت فيه بقية من الإنسانية أما إذا كان قد تجمد أى صار جماداً فسوف يأكل ويشرب ويسمع الرعد ولا يبالي، وما أكثر هؤلاء!

(٢٨) زاهر بن حرام الأشجعي

شهد بدرًا، كان يسكن البادية، ويهdy إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- منها، ويجهزه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد الخروج، وكان يقول فيه (زاهرا باديتنا ونحن حاضرته)

كان زاهر دميماً وذات يوم لقيه النبي -صلى الله عليه وسلم- بسوق المدينة، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فأخذ يقول: أرسلني مَنْ هذا؟ فالتفت، فرآه، فجعل يلصق ظهره ب صدره وجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: من يشتري العبد؟

قال: يا رسول الله، إذا تجدني كاسداً، قال لكنك عند الله غال، ولفظ عبد الرزاق: لكن أنت عند الله غال.

وكم من دميم في أعين الناس وهو عند الله غال، وكم من جميل في أعين الناس وهو عند الله رخيص !

إن حديث زاهر بن حرام الأشجعي حديث ذو شجون، وأول طرف فيه أنه رجل اعتاد أن يكون سفير الخيرات، يحمل تحف البادية إلى المدينة ويعود بتحف المدينة إلى البادية، ومثل هذا الرجل قد عرفت أيام طلب العلم بالأزهر الشريف، حيث كان في قريتنا رجل، وأكثر من امرأة، يمضون في البكور إلى مدينة ((منوف)) حاملين ما شاء الله لهم أن يحملوا من زبد وجبن، وطير، ويعودون معهم تحف المدينة، ومنها بعض الأقمشة، والفاكهة، وما يطلبه الجيران من أغراض، وأهمها الدواء، كنت أرى الرجل يقول للرجل: لقد أرسلت مع فلان أو فلانة كذا وكذا؛ ليأتيني بكذا- رجعه الله بالسلامة فأقول سبحان الله، دعوة بظهر الغيب سببها قضاء حوائج الناس، وذات صباح شاهدت أحد هؤلاء يقول

لرجل رايته بعيني في الشارع متجهاً إلى المحطة، ويبدو أنه كان قد عزم السفر إلى المدينة، وكان يطلق عليه (سفر) ؛لصعوبة المواصلات فسأله بعد أن أصبح عليه

- إلى أين؟

- إلى منوف

- ولماذا؟

- لأشتري كذا

- فقط؟

- نعم

- إن لم يكن لك غرض آخر فأنا أكفيك إذا أحببت

- يا ليت.. يا ليت

-هات الفلوس

فأعطاه وهو يقول له: كتب الله لك في كل خطوة سلامة، والله لقد رحمتني، تذكرت ساعتها باب الوكالة في الفقه، وقلت: هذا من ثمرتها، أن توكل أميناً -وتلك قضية- في شيء مباح يفعله نيابة عنك، وله أجره، ولك أن تقضى مصالحك.

ورحمة بالطريق، وبذل أن يحمل عشرين يحمل عشرة؛ فيخف الزحام

وكانت عودة هؤلاء بمثابة عودة الأمل، حيث ينتظرهم الناس، وكل يأخذ حاجته شاكراً ومقدراً ومن أطراف حديث زاهر بيان ما كان عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من رقة طبع، ولين جانب، ومزاح مع أصحابه، ولطالما قلت إن هذا الدين ليس بالسيف والسكين،

وإنما فيه فسحة للمزاح، والضحك والابتسام، وقد ذكر ابن قتيبة أن رجلاً قص على النبي -صلى الله عليه وسلم- مناماً، أنه رأى نفسه في المنام قد قطع رأسه، وانفصل عن بدنه وأخذ ينظر إلى رأسه، فضحك النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال له بأى عينيك كنت تنظر ! فلما مات رسول الله فسرّها الناس بأن الرأس رسول الله ونظر الرجل إليه معناه إتباع سنته، فيا ليتنا جميعاً نتبع سنته - صلى الله عليه وسلم - .

(٢٩) أم قيس بنت محصن

أخت عكاشة بن محصن، مات لها ولد، وجاء المغسل لكي يغسله، فأشعلت ناراً تدفئ عليها ماء الغسل وقالت له: لا تغسل ابني بالماء البارد، فتقتله، نسيت أنه مات، فما ملكت إلا أن قالت هذه العبارة التي بلغت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتعجب منها، وطلب إعادتها، فقال: ماذا قالت بالله (طال عُمرها) فأعادوها عليه، وعاشت بفضل دعائه لها بطول العمر مائة سنة .

وافقت دعوته -صلى الله عليه وسلم- قدر الله بلا شك لكل أجل مسمى عند الله ((لكل أمة أجل)) لكن لو تأملنا الحديث، كيف كانت أم قيس تعد العدة لغسل ولدها، وهي تعلم أنه ميت، قالت لمن جاء يغسله: لا تغسل ولدى بالماء البارد فتقتله، كلمات تجعل القلب ينفر من بين الضلوع تحناناً ورحمة، وتجذب دمع العين برفق هو أشد من ضرب الرصاص، فإذا هي تسيل على بلاط المودة، فتزرع فيها أسمى معانيها . إنها رحمة الأم، وكذا الأب بلا شك، رحمة لا تدانيها رحمة، فمعظم الذين يرحمونك في الدنيا سوى والديك إنما يرحموك لعلّة، وينتظرون منك جزاء هذه الرحمة، أما والداك فهما اللذان يرحمانك لا لعلّة سوى علة واحدة هي نعم العلل، وهي أنك بعضهما، فإذا رحماك فإنما يرحمان أنفسهما، أو نفسيهما، وهما لا ينتظران منك جزاء ولا شكوراً ومن قديم قال الناس: إذا فتشت في الدنيا عن أحد يريد غيره أحسن منه في كل شيء فلن تجد إلا الوالدين، والمعلم، فالوالدان يريدان ابنهما خيراً منهما، ويشرفان بذلك، والمعلم يريد تلميذه خيراً منه ويشرف بذلك، يقول هذا الذي صار أستاذاً جامعياً كان ذات يوم تلميذي

وقد تخرج على يدي على يدي فلان الذى صار كذا، وفلان الذى صار كذا وهكذا .

والوالدان مقدمان على المعلم، وعلى غيره لأنهما يذهبان بالابن إلى المعلم، وقد يشق عيانه من أجله، ويدفعان الغال والنفيس من أجل تعليمه وتنقيفه وتنويره، وقد ساءت العلاقة بلا شك بين الأبناء والآباء عند كثير من الناس، وقست قلوب كثير من الأبناء والبنات على الآباء والأمهات، والأسباب وراء ذلك يعللها بعض الناس بأن الأجيال قد تغيرت، وصار الأبناء مشغولين بأشياء كثيرة لم تكن شاغل من قبلهم فى زمان البر والاحترام، وفى ذلك شيء من الصواب، وتتمته أن هناك فيروساً قد تسرب إلى الحياة بصفة عامة، اسمه إهدار المعاني والقضاء عليها، وقد دخل بالتدريج كما ذكرت غير مره حتى استحال فحلاً عظيماً، وأنتج أجيالاً، وانتشر هو وأجياله بيننا انتشاراً خطيراً، ولكي نقضى على هذا الفيروس علينا أن نعيد النظر فى إقامة هذه المعاني؛ لأن ذلك هو السبيل الوحيد، يجب أن يكون فى حياة الناس معنى كبير، يقرب من القداسة، وأعلاه بر الوالدين، روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دل أصحابه على رجل من اليمن اسمه أويس القرني، وسألهم أن يسألوه أن يدعو لهم؛ لأنه بار بأمه، ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحد الصحابة فى جنة عالية، فقال نعم البر وكان هذا الصحابي بار بأمه ويجب أن يشيع هذا المعنى ليعلم العاق أنه بعيد عن رحمة الله وهو إليها فقير .

(٣٠) عامر بن فهيرة

أسود اللون، مولى أبى بكر الصديق، من السابقين المقتول غدرًا يوم بئر معونة سنة (٤) هجرية وهو ابن أربعين سنة، ركب خلف أبى بكر يوم الهجرة ليتسنى ركوب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - دابة وحده

قال، وكان آخر ما قال وهو تطير رقبتة فزت ورب الكعبة، فقال عامر الطفيلي: من هذا الذى قتلته فقال: فزت ورب الكعبة؟ فقيل له: إنه عامر بن فهيرة، فقال: كيف فاز؟ قالوا له بالشهادة فقال: أشهد أن هذا الدين حق، وأسلم بسبب ذلك عامر

هناك درس غائب من أهم الدروس، وهو درس اليقين الذى من ثمراته حمل الناس على الدخول فى الإسلام، كما دخل محيصة حين قال له أخوه لو أمرنى محمد - صلى الله عليه وسلم - بقتلك لقتلتك.

لاشك أن الأخ كان على يقين أن أخاه لا يمكن أن يقتله إلا إذا كان الأمر جد خطيراً، فأين هذا المعنى من قول الرجل الموثوق به وبعقله إن أخى لا يتورع عن قتلى بسبب جنيته، هذا خطر بلا شك وسره أن الأخ إذا كان من الجائز أن يقتل أخاه بسبب جنيته واحد، فلن يطمئن إلى دعوته إن دعاه إلى خير؛ لأنه لا يثق بأنه خير، ولو قال له اتبعني فى هذا وإلا هجرتك ما أثرت هذه الجملة فيه؛ لأنه يعلم أنه يهجره لأتفه الأسباب، فليس قوله ذلك بحجة على صدق دعوته، ولذا رأيت أن قتل المعاني إنما هو سبب فى إهدار معاني الدين، وبشيء من البيان أقول: إن الله عز وجل ذكر من أهوال يوم القيامة قال - تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ﴾

عبس: ٣٤ - ٣٧.

فمن الذى يتأثر بهذا الخطاب الديني؟

لاشك أنه الأخ الذي يفر من كل شيء إلا من أخيه ويفر أخوه من كل شيء إلا منه، أما الذي يفر من أخيه لأدنى سبب، ويفر منه أخوه لأدنى سبب كذلك فكيف يؤثر فيه هذا الهول، وكيف يدعوه هذا الهول إلى عمل الصالحات، والاستعداد ليوم يفر فيه أخوه منه .

وكذلك حين يطلع امرؤ على ما ثبت من حياء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أنه - صلى الله عليه وسلم - ((كان أشد حياء من العذراء في خدرها)) .

من ذا الذي يتصور حياء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لاشك أنه الذي يرى ما عليه العذراء من حياء عظيم، فإذا رأيت العذراء قد صارت بلا حياء فكيف يتصور الناس مدى حياء النبي - صلى الله عليه وسلم - ! والمثال المضروب في ذلك حياء العذراء، فإذا أردت أن تشعر بعظيم المعنى فأعد المشبه به، أو ابحث عن مشبه به آخر، أو زد على المشبه به الذي لا تستطيع أن تعيده عبارة مثل ((كان - صلى الله عليه وسلم - أشد حياء من العذراء في خدرها أيام كانت العذراء ذات حياء)) حتى يتصور الناس المعنى دون أن يتبادر إلى الأذهان ما عليه العذراء الآن، وكذلك إذا شبهت رجلاً بالأسد في الشجاعة فإن كنت في بلد صارت فيها الأسود نعامة أو أرانب، فقل فلان كالأسد في بلاد العرب، أو كالأسد أيام كان الأسد أسداً

ومن قول عامر بن فهيرة - رضى الله عنه - فزت ورب الكعبة ورأسه يطير عن جسده ما يبعث في كل نفس معنى الثبات على الرشد، والاطمئنان إلى آيات اليقين التي تجسدت في حبه لقاء ربه وإيمانه بقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٩

وكذا كل من اطمئن إلى ثواب الصدقة سوف يبذل قائلًا فزت ورب الكعبة.

(٣١) ضمضم بن قتادة

كان في صدره شيء لم يستطع أن يكتمه الأبد؛ لأنه سبب له وحشة، ووحشة النفوس أشد من وحشة الزمان حين يخلو من الساعات المرة، ومن وحشة المكان حيث لا ماء ولا شجرة،، أو حش ضمضم ابن قتادة بسبب ولد، ولد له أسود، وهو يرى نفسه ليس بأسود وكذا امرأته، والولد آنذاك شديد الصلة بأبيه يراه داخلا عليه، مقبلاً بحنين شديد إليه، يناديه أبتى، فيراه أسود، وفي النفس تلك الوحشة واتخذ القرار، ونعم ما اتخذ، أن يذهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ويشكوا إليه ذلك، وسأله النبي - صلى الله عليه وسلم : هل لك من إبل؟ فقال: نعم قال: ما ألوانها؟ قال: حمر وسود فقال له - صلى الله عليه وسلم - فكيف ذلك؟ فأجاب قائلاً: عرق نزع؛ فقال عليه الصلاة والسلام وكذلك ولدك هذا. عرق نزع

وقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة ٣-٥٨ أن عجائز من قوم ضمضم بن قتادة ذكرنا أن امرأته كانت لها جدة سوداء، عاد ضمضم بن قتادة سعيداً بولده، وقد اطمأن قلبه

وذهب الشك منه، فالشك قاتل لسلامة القلب ومن كان حريصاً على نزع الشك من قلبه كان حريصاً على سلامته. فأفة الآفات التي تصيب سلامة القلب هي الشك، وقد عالج الإسلام هذا الشك باليقين. واليقين أن العرق ينزع من قديم، فلا ينظر العاقل إلى جديد مختلف، وله في اليقين إثبات، فعليه أن يطوى صفحته، وأن يقبل على حياته مطمئناً دون شك يفسد عليه صفاءه. ويعكر عليه نقاءه، ويجعله حتى وهو يعبد الله - عز وجل - في قلق واضطراب، لا يدري كم ركعة صلى، فضلاً عن هذه

الشكوى المتكررة من كثير من الناس، يقولون: لا نحس: ولا نشعر بلذة الصلاة، والعمرة، وغيرهما، فمن أهم أسباب هذا الشعور انشغال الفكر بمسائل متعددة منها الشك والريبة، والدين يقوم على البينة، وفي الحديث الذي يعد أصلاً من أصول القضاء في الإسلام، وهو قوله- صلى الله عليه وسلم- البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، وما دام الأمر بلا بينة فلا يعتد به عند العقلاء الحريصين على سلامة القلب، ونحن نلاحظ أن معظم القضايا التي تشغلنا ونفكر فيها ليل نهار قائمة على الشك وكل مالدينا من بينة هو قولنا ((لا دخان من غير نار)) فإلى متى سنظل ننظر في الدخان الذي يغشانا فلا نرى فإن لم يكن له من وجود في الواقع اصطنعنا .

سمعت أحد الناس يقول في امرأة مطلقة وأم بنات تخرجن في الجامعة، وكن في حالة معتدلة من العيش: إن هذه المرأة وبناتها يعشن من الفاحشة، وسرني أن رد عليه رجل أحسبه من الذين يحبون أن يحفظوا ألسنتهم: أليست جارتك؟

قال: بلى

قال: هل ترى الداخلين عليهن والخارجين؟

قال: لا

قال: فلم التهمة؟

قال: يخرجن بجمعهن، فليس شرطاً أن يأتي الزبائن إلى

البيت..... إنك رجل بلا خبرة

قال له: سامحك الله، والحمد لله الذي نجاني من هذه الخبرة

السيئة.

وقد جهد هذا الرجل نفسه، وتبين له أن المرأة تخرج وبناتها إلى محل عندهن يبعن فيه ويشترين فأخبر من اتهمهن بالفاحشة وقال له: تعال لأريك أين يذهبن! فقال إنها ستارة يا عبيط لا فائدة فيمن سكن الشك قلبه، إن تبين له الحق بحث له عن وجه للباطل؛ لأنه لا يعرف سواه، هذا محل للبيع ((وأحل الله البيع وحرم الربا)) لكن مَنْ يصدق أن عيشهن حلال، إنه من رأى وآمن وقبل ذلك كان عنده استعداد للخير أما أخو الريبة فيقول: ولو !

(٣٢) عبد الله بن سعيد بن العاصي

سطران في ترجمة رجل من الصحابة يوزن كل حرف فيهما بماء الحياة، وماء الحياة عند الذين يعرفون معنى الحياة أغلى من ماء الذهب والماس، وكل الجواهر الثمينة، إنه عبد الله بن سعيد بن العاصي بن أمية أمه صفية بنت عبد الله من بني مخزوم، كان اسمه الحكم فسماه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبد الله، أما السطران العظيمان الواردان في ترجمته فالأول أنه كان يحسن الكتابة في الجاهلية؛ فأمره النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعلم الكتاب بالمدينة، وكان كاتباً محسناً وأما الثاني فهو أنه على الأشهر مات شهيداً يوم اليمامة، وصلة هذين السطرين بماء الحياة أن الكتابة قيد العلم وهي علم، والحياة على جهل وهم حياة، أما الحياة على علم فهي عين الحياة، وكذا الشهادة حياة للشهيد أبدية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٣٢) آل عمران: ١٦٩

وحياة لغيره فلولاً بسالته وفداؤه لهجم الغادرون المعتدون على كل معلم من معالم الحياة، وقضوا عليه، رجل عاش معلماً الناس الكتابة، ومات من أجل الناس والزرع وعود الربيع الأخضر شهيداً، فأية ترجمة تربو على ترجمته، وأية حياة تسمو إلى درجة حياته، وأي ميتة سووية ترقى إلى مستوى ميته الغراء

إن مثل عبد الله بن سعيد بن العاصي بحق هم رجال حول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، رجال يكشفون عن جواهر مكنونة في هذا الدين، الذي أحياهم، وأحيا بهم غيرهم علماً في الحياة، وعزاً في الممات، وانظر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - كيف أمره أن يعلم الناس في المدينة، أي أن تعليم من يحسن الكتابة غيره من عزم الأمور

في هذا الدين وأن رفع الأمية عن الناس من الواجبات، وأن السعة إليها بتجنيد الجيوش التي هي قادرة على ممارسة هذا العمل، ألا ترى إلى قول المؤرخين في عبد الله بن سعيد ((وكان كاتباً محسناً)) فأنت ترى كثيراً من خريجي الجامعات لا يحسنون القراءة والكتابة، وقد بات هذا الأمر وأصبح غير محتاج إلى دليل، فالواقع شاهد ناطق بتلك الأمية الغبية، التي ما وصلت إلى حد الأمية حتى يرجى علاجها من أول: ألف: وباء، وتاء، وما وصلت إلى حد العلم حتى يمكن استغلال من أدركه في محو أمية غيره، ولا داعي إلى ندب سيدنا في كتاب القرية - رحمه الله - وغيره ممن ودعوا مراحل التعليم إثر عامين أو ثلاثة من التعليم الإلزامي ((الابتدائي)) وكانت كتابتهم صحيحة، وخطوطهم أية فن وجمال، فإن البكاء على ماض تولى لن يفيد، يكفي أن نقرر أننا على خطر عظيم شأن كل من يدعى الكمال وكل ما فيه نقص، وموضوع الكمبيوتر، وغيره لا يغنى عن القلم والكتابة بحال، وغير مقبول مناقشة هذا هنا، أو المراد به أساساً، فحالة الزهد في الورقة والقلم أخطر على الأمة من الزهد في الحياة الدافع إلى الملالة والسامة والتواكل والتخلف، وهجرة الكتاب إلى الشاشة أشد خطراً على الأجيال من هجرة الأوطان وقد تحول التعليم في بلادنا إلى حرفة صيد الدرجات وإن لم ندرك في هذه المسألة ونعالجها فسوف يزداد الأمر سوءاً بعد سوء، فهم الطالب أن يعرف كيف يأتي الامتحان، والماهر من الأساتذة هو الحريف الذي يلف بطلابه ويدور حول (س، ج) ليس عند طلابنا رغبة ولا استعداد، ولا مناخ لتلقى العلم صبراً على جمعه وتحصيله، وحين يصبح العلم كما يقال (نيك او اي) فقل على الدنيا السلام، وقد ابتلينا منذ حوالى خمسة وعشرين عاماً بما يسمى الطريقة الأمريكية في الامتحانات، والتي تعرف بالاختيار من متعدد، فقضينا بها على الكتابة،

والإبداع، والنظر، والتفكير، وقد ينجح من خلالها من هو على مبدأ حادي بادي، وقد يحصل على درجة ((ممتاز)) مَنْ لا يعرف كتابة كلمة ((ممتاز)) التي حصل عليها، لا بد أن تعود فصول العلم أنديّة نديّة بتمكين من لديه من الأدوات الحقيقية ما يرفع من شأن طلابه ولا بد أن يعتكف الأبناء على الكتاب والورقة والقلم يتلذذون بذلك فيعدون ويتقدمون، ويشعرون بقيمة العلم معنى راسخاً في عقولهم، لا مركبات صناعية معلقة إلى حين، الامتحان.

(٢٣) عروة القشيري

جاء عروة القشيري رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له: كان لنا أرباب وربات دعوناها، ولم تجب لنا، فجاءنا الله بك فاستنقذنا منها، فقال - صلى الله عليه وسلم - أفلح من رزق لباً، ثم دعاه - صلى الله عليه وسلم - مرتين، وكساه ثوبين

حمد عروة القشيري الله - عز وجل - على نعمة البعثة المحمدية، حيث تحولت حياة الناس من دعاء غير مستجاب إلى دعاء مستجاب، فقد كانوا يعبدون الصنم والشاة، والملائكة، والجن، والكواكب، ويدعون هذه الأرباب، والربّات، وهن جميعاً لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً أما وقد بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - وهدى الله به العباد إلى رب العالمين فقد صار دعاء الناس مستجاباً، لأن الله عز وجل له ملك السماوات والأرض، وما سوى الله - عز وجل - لا يملك شيئاً.

الفكرة في مقولة ((عروة)) هي فكرة الإنقاذ استنقذ الله المؤمنين من أرباب لا تجيب، ووجههم إليه سبحانه، وهو يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

وفكرة الإنقاذ نحن نعرفها في سياق المخاطر المادية المحسوسة، كإنقاذ الغريق من الغرق، وكإنقاذ الناس من الهلاك في بيت يحترق، وغير ذلك، والناس في حاجة إلى منقذ معنوي وهم إليه أحوج لأن الذي أنقذهم من الغرق إنما أنقذهم من الموت مرة أما المنقذ المعنوي فإنما ينقذهم من الموت في كل يوم فقد يعلمهم العوم، والسباحة، وينبهم إلى مواطن الأخطار التي إن نجوا منها مرة بمحض الصدفة فهم حتماً سيقعون فيها ذات يوم، وما أشبه ذلك بالحكمة القائلة: إذا أعطيتني سمكة فقد ضمنت لي قوت يومي، وإذا علمتني الصيد فقد ضمنت لي قوت عمري، والمنقذ المعنوي كذلك، يعلم الصيد ويعطي

(٣٤) عمرو بن عبد بن نهم الأسلمي

ما ورد في سيرة هذا الصحابي أنه كان دليل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الحديبية، فأخذ به على طريق ((ثنية الحنظل)) فانطلق أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى وقف عليها فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذي نفسي بيده ما مثل هذا الثنية إلا مثل الباب الذي قال الله - عز وجل - ((وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة)) ولا يجوز هذه الثنية أحد هذه الليلة إلا غفر له،

أى شرف كالشرف الذى ناله مثل هذا الرجل عمرو بن عبد بن نهم الأسلمي، أنه كان دليل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الحديبية، هذا رجل دليل، فأين الدليل اليوم، الذى يدلنا على الخير ويرشدنا إليه، وقد جربه واعتاده، حتى صار به خبيراً؟ أين الدليل اليوم الذى يدلنا على طريق خال من الألغام فى صحارينا الغربية؟ وأين الدليل الذى يدلنا بصدق على طريق الخلاص من الفقر والجوع والمرض؟ إن الدليل الذى تحتاج إليه الأمة اليوم هو الدليل الذى اعتكف على دراسة الدين والعلم، فثبت الناس على عزم الأمور، ولم يثر فيهم قلقاً ولا اضطراباً ولا فتنة.

وحول قضية الدليل أماننا إشكاليتان. الأولى فى صدق الدليل كما قلنا، والثانية فى موقفنا منه، فقد يتوفر لدينا الدليل لكننا لا نأخذه دليل، وإنما نصد عنه ونبتغى الفتنة لا الهدى، والاضطراب لا الاستقرار، إننا فى حاجة إلى دليل صدق، إلى مضارب أمين، ذي خبرة بالعمل، نسلّمه أموالنا فتربح، ونعطيه رقابنا فتسلم، لا دليل الكذب الذى يسرق أموالنا، فنقتله، فنضيعه ونضيع أنفسنا معه، وإذا توفر لدينا دليل الصدق وجب علينا إتباعه وهذه إشكالية خطيرة، فكم من دليل صدق بين أيدينا ونحن عازفون عنه، لأنفسه الأسباب التى منها أن يكون قريباً لنا، ضحكت ذات

السكة كذلك حتى يتعلم صاحبه الصيد، أما رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - يكسو عروة القشيري ثوبين، ويعطى الأنصارى عوداً وصنعه بيده الشريفة فى قدومه، وقال له: أذهب، واحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشرة يوماً، وقد جاء بعد هذه المدة رابعاً عشرة دراهم، وقد جاء من قبل سائلاً، فقال له عليه الصلاة والسلام: هذا خير من أن تجيء المسائلة نكتة فى وجهك يوم القيامة؛

إن المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع، ولأن الدعاء لا غنى للإنسان عنه، وكان دعاء غير الله عز وجل دعاء ضلال: لأنه غير مستجاب كان إحساس مثل عروة القشيري ببعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - عظيماً

من أجل هذه النقطة، التي يشعر بها من جاور أصم لا يسمع، ثم انتقل إلى جوار سليم السمع، كان فى جوار الأصم يصرخ، ولا يأت صراخه بفائدة، وهو الآن يهمس، وإذا بالهمس كأنه مكبر صوت، أنه بالأمس لم يكن مسموعاً، وهو اليوم مسموع دون أن يبذل كبير جهد، والله المثل الأعلى، فهو سبحانه وتعالى يعلم السر والأخفى، وهو العليم بذات الصدور، وعلمه بحال العبد يغنيه عن سؤاله، لكنه يرطب لسانه بذكره ودعائه، وما أشد حاجتنا إلى منقذ هو فى الحقيقة موجود متى طلبناه وجدناه، فنحن الذين غيبناه، إنه ذلك الفكر الديني الرشيد الذى أهملناه وأثرنا غيره عليه، فطرنا فرحاً بالليبرالية وما شاكلها من زخرف الأسماء والمعاني البراقة وما حصدنا من ذلك إلا جدلاً، وإثارة، واضطراباً، إننا فى حاجة إلى إعادة النظر، التي لا تأتى إلا بالخير، وإن كلفنا ذلك ما كلفنا من عودة إلى أصول ديننا وحضارتنا، حتى تتحول حياتنا من دعاء الصم إلى دعاء السميع القريب المجيب، الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، والدعاء له فقهه وما يستند إليه من دعائم أهمها العمل الذى بلاسه. فلا معنى بالدعاء بالعمل، والعمل بلا دعاء غرور .

مَا وَالْأَيْنِ الْمَبَالِغَةُ وَالْحَقِيقَةُ

(٣٥) عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ

عويم بن ساعدة بن عائش بن قيس أسلم قديماً وهو قد شهد العقبات، أخي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين حاطب بن أبي بلتعة شهد المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عند قبره وقال: لا يستطيع أحد من أهل الأرض أن يقول إنه خير من صاحب هذا القبر، ما نصب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راية إلا وعويم تحت ظلها . شهادة من شهد المشاهد لمن شهد المشاهد، أي رصيد لرجل مثل هذا الرصيد لعويم بن ساعدة بن عائش ما نصب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا وهو تحت ظلها لم يتخلف عنه إذ نصبت له راية، فإن قيل: ما لصاحب هذا القبر عن المناقب والمآثر؟ فالجواب في سطور، بل في سطر يغنى عن مجلدات: ما نصب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راية إلا وهو تحت ظلها (فتحدث يا تاريخ واشهد يا زمان، وتعطري يا سيرة بهذا الجهاد المتواصل بلا فواصل، ولا عذر، ولا تخلف، ما جاء عويم بن ساعدة بن عائش بن قيس تحت الراية طمعاً في غنيمة، وإنما هو قاصد إحدى الحسينيين: النصر أو الشهادة، لا يعنيه أمر الغنيمة

فتصور ((ما)) و ((إلا)) من أدوات النصر، الذي ربما أفادت المبالغة في كثير من السياق، وشتان ما بين المبالغة والحقيقة، فالحقيقة أن هذا الرجل ما نصبت راية إلا وهو تحت ظلها، والمبالغة أن تقول إن فلانا ما ترك كتاباً إلا قرأه، مع أنه لم يقرأ كثيراً من الكتب، وأن تقول: ما ترك فضيلة إلا تحلى بها مع أنه بلا شك قد ترك كثيراً من الفضائل، وإن كان لم يتركها عمداً، لكنها المبالغة التي قد تكون مقبولة، وقد تكون غير مقبولة، فهي مقبولة فيمن كثرت قراءاته، وفيمن تحلى بفضيلة

مرة على امرأة عجوز دعيت إلى زيارة طبيب كان ابن قريبة لها فقالت: إلى فلان؟ قيل: نعم، قالت: كي يقتلني! قيل لها كيف؟ وقد تعلم كذا ودرس كذا وصار طبيباً مشهوراً؛ فقالت: بالأمس كان يلعب مع الصبيان، وكاد يفقأ عيني بالكرة الشراب قيل لها: هذا منذ ثلاثين سنة، حيث كان طفلاً لا يدري، والآن صار عالماً! قالت ولو والله لموت بمرض عندي أهون من زيارته.

ونحن لدينا تلك العقدة، تطورت بعض الصناعات عندنا ومازال الكثيرون يفرعون إلى الصناعة الأجنبية وإن كانت رديئة، عقدة الخواجة؟ والإعجاب بكل ما هو أجنبي، إلى درجة أن بعض القادرين يجرون تحاليل طبية وفحوصات عادية بالخارج، والمسافرون إلى دول الخليج ينفقون أكثر من نصف رواتبهم على مشتريات هدايا ونحوها من هناك، ويبدلون الجهد في نقلها وتحمل تكاليف ذلك، وتحت منازلهم دكاكين فيها هذه السلع والبضائع، ولكن ما جاء من الخارج أفضل عندهم من الداخل ألف مرة، وهذا وهم كبير وسلوك خطير يؤدي ويضر، وما خير - صلى الله عليه وسلم - بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً حتى الواعظ، إن كان ابن القرية زهد فيه أهلوها، لا ينظرون إلى ما عندهم من العلم وإنما ينظرون إلى جدة له كانت تبيع الفجل، وإلى والد له كان يعمل عند الناس من أجل أن يربيه، حتى الرجل في بيته لا يسمع نصيحة لزوجته وهي حق، ويهفو إلى من هي دونها ويدنوا، ويقول حكيمة، وهذا ضرب من العمى، فالحق نحن أول الناس به خصوصاً إذا كان مصدره قريباً، فإن لم نجده عندنا التمسناه عند غيرنا ضرورة، فلم نصر على الضرورة ونحن في سعة من أمرنا!

(٣٦) عبدالله بن ثابت الأنصاري

على طريق الرحمة الذي لم يعرف غيره مشى - صلى الله عليه وسلم - زائراً عبد الله بن ثابت الأنصاري أبو الربيع وكانت اللحظة الأخيرة، ناداه - صلى الله عليه وسلم - فلم يجبه، فقال عليه الصلاة والسلام - إنا لله وإنا إليه راجعون، غلبنا عليك أبا الربيع ومات عبد الله ابن ثابت وكفنه - صلى الله عليه وسلم - في قميصه

والشاهد في القصة والحديث أن هناك لحظة لا غالب فيها إلا أمر الله، وكل شيء بأمره إنها لحظة الفراق، حيث تتأدى من لولم يجب الدنيا جميعاً أجابك، لكنه لا يجيبك، لا يملك أن يجيبك، فكلكما مغلوب، والله - عز وجل - غالب، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

إن عبد الله بن ثابت لو ملك أن يجيب لأجاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما فعل سعد بن الربيع، وهو شهيد أحد، حين أرسل - صلى الله عليه وسلم - رجلاً يرى حاله أفى الأموات هو أم فى الأحياء؟

وأخذ ذلك الرجل ينادى: يا سعد، يا سعد بن الربيع وسعد لا يجيب، حيث كان فى جراحه، فلما قال الرجل: رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرسلنى إليك أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات عندئذ نطق سعد، وقال: فى الأموات، بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنى السلام، وقل له جزاك الله خيراً ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ أهلى منى الوصية، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: ألا لا بارك الله فيكم إن أصيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفيكم عين تطرف ثم لقي الله - عز وجل - شهيداً

لو كان عبد الله بن ثابت الأنصاري يملك اللحظة التي ملكها سعد ابن الربيع لأجاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلا ترد، وإذا كان سعد قد أجاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما بالنا برسول الله -

أغنته عن غيرها، إما لعظمتها وتضمنها غيرها، وإما لأثرها عند الناس، وتكون المبالغة غير مقبولة إن قيل مثل هذا التعبير فى جاهل، لم يقرأ أصلاً كتاباً واحداً، أو قيلت فى بخل، أو فى رذيلة، خوفاً وطمعاً وتبقى الحقيقة أروع من كل خيال وأصدق فعلى أكتاف عويم بن ساعدة بن عائش بن قيس وأمثاله نشر الله هذا الدين وأعز الحق والمسلمين .

وشتان ما بين رجل ما نصبت مائدة إلا حضرها، وبين رجل ما نصبت راية لجهاد إلا كان تحت ظلها، الأول يذكرك بأهل البطون والمتطفلين، والثاني يذكرك بأبي بكر الصديق الذى سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - هذا السؤال هل ينادى أحد من جميع أبواب الجنة؟ قال: نعم، وأنت من هؤلاء، أى ما من باب من أبواب الجنة إلا ولأبى بكر - رضى الله عنه - فيه رصيد، فإن دعا باب الصدقة المتصدقين فأبو بكر منهم بلا شك، وإن دعا باب الصيام الصائمين فأبو بكر منهم جاء أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال ذات يوم أيكم أصبح اليوم صائماً فقال أبو بكر: أنا فقال: أيكم أطعم اليوم مسكيناً فقال رضى الله عنه: أنا؛ فقال أيكم عاد اليوم مريضاً فقال الصديق: أنا؛ فقال عليه الصلاة والسلام: أيكم تبع اليوم جنازة فقال أبو بكر أنا فقال: عليه الصلاة والسلام ما اجتمعن فى امرئ مسلم إلا دخل الجنة وكذلك هذا الصحابي الجليل عويم ابن ساعدة بن عائش الذى لم يترك راية نصبت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا كان تحت ظلها مجاهداً، وساعياً إلى مواطن الرجولة واليوم قد ابتلينا بابتلاء عظيم نحن صانعوه وهو أننا نرى الحياة مشكلات زوجية، وميراث وصار الناس يجاهدون فيها دون غيرها، فما حضروا راية مجد ولا فضيلة وإنما انشغلوا بقضاياهم الاجتماعية فضلاً عن الاقتصادية وكان الدين والدنيا فى هذا الغم والهم والدجل والمحمول وكأنه ليس وراءنا رسالة لنصرة الدين الذى هو شرط من الله لنصرنا، حيث قال: ((إن تنصروا الله ينصركم)).

صلى الله عليه وسلم - نفسه؛ لذلك علم المصطفى أن عبد الله على شفا الرحيل، وأنه - صلى الله عليه وسلم - والدنيا معه قد غلبوا عليه فلا يملكون له الآن شيئاً، إذ جاء الأجل ((وجاءت سكرة الموت بالحق)) ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها .

الأمر الذى يدعو إلى إعادة النظر قبل أن نغلب، فمن كان له والد أو والدته، أو صديق فليبادر إلى بره قبل أن يغلب عليه، وليسع إلى ندائه بالمودة حتى يرد عليه قبل أن تأتى اللحظة التي يناديه فيها فلا يملك أن يرد عليه وبعدها يكون الندم المر، الذى لا يعيد ماضياً.

ولا يفتح صفحة من عطاء إنه الآن راحل يجيب ملك الموت، ويجيب نداء الله عز وجل - وفى سعة الحياة قد يسكت فلا يجيب لعله به، وآلام، أو لشيء، فى نفسه ممن يناديه فتأثر بجفائه وغلظته وظلمه، ومثل هذا الموقف يجعله يلح عليه، ويرتضاه، لأن فى الوقت متسعاً قبل أن تأتى اللحظة التي ليس فيها متسع، وليس بعدها من أمل فى أن يجيب، وفى الوقت نفسه فإن المرء تناديه فى حياته أعمال، إن لم يجيبها وهو سالم فلن يجيبها وهو أشد فقراً إلى إجابتها فكم نادته الصلاة وكان قادراً على السجود أما وقد جاءت تلك اللحظة وهو يسمع الأذان ولا يملك أن يجيب فإن الأمر أسوأ ما يكون حيث الرحيل بلا زاد.

(٣٧) فراس عم صفية بنت بحرة

روت صفية بنت بحرة أن عمها فراساً، رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - يأكل فى قصعة، فاستوهبه إياها، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يقول لسائل: لا أخذها فراس تبركاً وتيمناً، وكان عمر - رضى الله عنه - يعلم ذلك، فكان إذا زارهم قال: أخرجوا إلى قصعة النبى - صلى الله عليه وسلم - فيخرجوها له، فيملأها من ماء زمزم، فيشرب وينضح على وجهه.

قالت صفية: فدخل علينا سارق، فسرقها وجاء عمر - وطلبها كعادته، فقال: أخرجوا إلى قصعة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقلنا له: إنها سرقت فقال: لله أبوه، فما سمعته سبه ولا لعنه .

معان على طريق الحياة، منها أن خلق النبى - صلى الله عليه وسلم - عظيم، وصدق الله العظيم إذ يقول فيه ((وإنك لعلى خلق عظيم)) ومن هذا الخلق جبره خاطر من سألته، فالمعهود عن سيد الوجود - صلى الله عليه وسلم - أنه مارد سائلاً، وما قال لسائل: لا إن وجد شيئاً فى بيته وهو بيت الأمة أعطاه، وإن لم يجد قال له: ابتع على، أى اشتر على نفقتي .

وأن فراساً عم صفية هكذا كما ترجم له ابن الأثير فى أسد الغابة (٣٠٩-٤) ما سأل القصعة إلا لأنه وجد النبى - صلى الله عليه وسلم - يأكل فيها، فهو يلتبس بركته - صلى الله عليه وسلم -.

ومن المعاني المهمة أن عمر - رضى الله عنه - كان يعرف سيرة هذه القصعة، ومن عرف سيرة قصعته - صلى الله عليه وسلم - عرف سيرته وهديه من باب أولى ومن يعرف سيرة المعصوم وهديه إن لم يعرفهما عمر!

بعض الناس يحفظ سيرتك المادية ويتبع حاجتك وأغراضك، يعرف متى اشترى هذا القميص ومتى قبضت هذا المبلغ، وماذا أنفقت منه،

(٣٨) مالك بن نضلة

مالك بن نضلة والد أبي الأحوص الجشمي صاحب ابن مسعود، يروى أنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الرجل يمر به، فلا يضيفه، فهل له أن يجازيه يعني يعامله بالمثل، فلا يضيفه، فأمره النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يضيفه، وأن يكرمه، أى عليه ألا يقابل الإساءة بإساءة، ثم قال مالك: ثم رأني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رث الثياب؛ فقال: هل لك من مال؟ قلت: من كل المال قد أعطاني الله من الإبل والغنم؛ فقال فلير عليك، وفي رواية فأكرم نفسك كما أكرمك ربك، وفي الثالثة: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ونحن أمام قضايا مهمة في ضوء حديث مالك بن نضلة، أولاها: أن الرجل يمر على الرجل فلا يهتم به. ولا يقدم له واجب الضيافة، وقد جرت عادة الناس أن المعاملة بالمثل هي اللاتقة، وهي الحق، وهي ما يستحق، أما منهج الشرع الحنيف فكما جاء في توجيه النبي - صلى الله عليه وسلم - أن هذا الذي لم يقدم واجب الضيافة إن مرّ بمن أهمله كان عليه أن يحسن إليه، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) فصلت: ٣٤

هناك بلا شك فرق بين أن يرى الله أثر نعمته عليك، فأنت ترتدي الجميل من الثياب من أجل ذلك، وبين أن تكون مستعرضاً تكسر قلوب البائسين، وتغيظ المحرومين، وكأنك تقول لهم هلموا إلى حسدي، أى أنك تكثر الحساد، والأول الذي يبدى نعمة الله عليه إنما يقول للدنيا من حوله: انظري إليّ؛ فأنا عبد أنعم الله عليه وتلك من آثار النعم، وعندى ما يكفى غيري، فأنا لا ألبس وحدي، ولا أكل وحدي، ولا أغيط غيري،

يعد لك ما عندك من أمتعة، يحصى عليك ثروتك أكثر وأدق من إحصائك وأنت رب المال، ولا يحفظ عنك كلمة طيبة، ولا يحفظ فيك خلقاً، ولا يعرف لك وجيعة، وحرى بمثله إن كان من هواة الإحصاء المادي أن يكون من هواة الإصلاح المعنوي، فيواسيك ويتابع حالتك المعنوية، ويعرف ما يسرك وما يسيئك، فيعمل على ما يسرك، وما يزيدك سروراً، ويتجنب إساءتك ومساءتك، وقد كان أبو بكر وعمر من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمنزلة السمع والبصر فلا عجب أن يعرف عمر أين ذهبت قصعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأن يسأل عنها، وأن يلتمس بركتها وهي عند من استوهبها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وأخطر المعاني والدروس أن قصعة النبي - صلى الله عليه وسلم - قد سرقها السارق، فضاعت وهي بلا شك حلال، ومأخوذة منه - صلى الله عليه وسلم - على وجه حلال، والسرقة لا دخل لها بالحلال والحرام أى مال في غير حرزه معرض للسرقة. حلالاً كان أو حراماً، حتى ولو كان مال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذا يجعل قول الناس ((الحلال لا يضيع)) مردوداً فإن كان مالك حلالاً فهو معرض للسرقة إن لم تحفظه وتصنه وتجعله في حرزى الأمين، أما أن تعرضه للسرقة تحت وهم أنه حلال، وأن الحلال لا يضيع فهذا كلام فارغ يعرض الفرد والأمة لكوارث، وهو كذلك يورث الشك عند من يسرق وهو تحت هذا الوهم، قائلًا: مادمت قد سرقت فإن هذا المال مال حرام، أو يضرب كفا بكف حين يسرق قائلًا: مع أنني على يقين أنه مال حلال كما أن بعض الناس يغرون أنفسهم إذا سرقوا بمثل قولهم: لو لم يسرق لأصابنا منه شر، ولو كان فيه الخير لأبقاه الله، وهذا أيضاً خطأ، ومن تلك المعاني أن عمر لم يسب السارق ولم يلعنه، فالمسلم ليس بسباب ولا لعان ولا فاحش ولا بزىء، وإن كان من لوم فهو لمن فرط في حاجته، ولم يضع ماله في حرز يصونه.

فمن كان له على حق فهذا حقه، إنه برغم الشكل المبهر، ذو قلب نابض بالحياة.

بدا أبو ذر وجيهاً في ثياب، وبدا معه خادمه يرتدى مثل ثيابه، فلما سئل عن ذلك قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إخوانكم خولكم، أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، مع أن في عبارته - صلى الله عليه وسلم - اتساعاً للخلاف، فلا يعنى ذلك أن يأكل الخادم الطعام نفسه الذى يأكله مخدومة ولا أن يلبس الثوب نفسه الذى يلبسه مخدومة وإنما المراد كما ذكر الطحاوى فى كتابه معاني الآثار أن يطعم المخدوم خادمه وألا يتركه عارياً، لأن التعبير لم يأت بمثل الدالة على المطابقة، وإنما قال ((مما)) و((ما)) عامة وقد قال الكافرون فى رسول من رسل الله ((ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون)) ولا شك أن الأطعمة بينهم مختلفة فالطعام جنس واحد، ولكن صنوفه مختلفة لكن هناك من يحمل نفسه على الأعلى؛ لأن نفسه عالية، هناك من ينفق مما يحب، لينال البر، وهناك من ينفق من غيره، وقد فتح الباب أمام الجميع قول الله تعالى ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا يُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ٩٢﴾

وقد اشتمل حديث مالك بن نضلة على معنى من معاني الإسلام العظيمة، وهو عدم المعاملة بالمثل فى الإساءة، فمن مرت به ولم يكرمك أكرمه إذا مرّ بك، وغياب هذا المعنى أدى إلى كثير من الفساد حيث يزداد التوحش بين الناس، وتتوارث الإساءة، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٢٤﴾ فصلت: ٣٤

ولأن ذلك لا يفعله أى أحد قال الله تعالى ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ فصلت: ٣٥

(٣٩) مالك بن قيس بن خيثمة

أبو خيثمة

شهد أحداً، والمشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان مالك قد عاد إلى بيته وقد تحرك النبى - صلى الله عليه وسلم - بالجيش إلى تبوك، وكانت له امرأتان وكان الجو شديد الحرارة، فوجد كل امرأة منهما قد رشت أمام عريشها، وبردت الماء، وأعدت الطعام، فلما دخل على العريش، ونظر إلى زوجتيه وما صنعتا له قال: رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الضح والريح والحر، وأبو خيثمة فى ظل بارد، وماء بارد، وطعام مهناً، وامرأة حسناء فى ماله مقيم، ما هذا بالنصفة، والله لا أدخل عريشاً واحدة منكما حتى ألحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهيئاً لي زاداً؛ ففعلتا ثم خرج فى طلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أدركه بتبوك، حين نزلها؛ فقال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ((كن أبا خيثمة)) قالوا يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له - صلى الله عليه وسلم - أولى لك يا أبا خيثمة ثم أخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخبر، فدعا له - صلى الله عليه وسلم -

أنه درس النظر، وما خاب من نظر، واعتبر النظر فى الحال، وحال سيد الرجال الذى أنقذنا الله - عز وجل - من الضلالات، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور، كيف يتسنى لرجل من أمته أن يدخل بيته، وأن يأكل بالهناء طعامه، وأن يستمرىء شرابه، وأن يسعد بقرب زوجته وهو - صلى الله عليه وسلم - يغزو فى الحرب.

إنه درس الإحساس الذى برد عند كثير من الناس، فتبدلوا وشعروا بما لم يشعر به الفائزون قبلهم، فأثروا راحتهم وقدموا رغباتهم على

غيرهم؛ لأنهم لم ينظروا إلا إلى أنفسهم والنظر إذا وقف عند النفس، ولم يتعد إلى الآخرين لا سيما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يؤدي إلى الهلاك ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا يَغِيظَ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَلَاحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢٠) وَلَا يَفْقُوتُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢١) التوبة: ١٢٠ - ١٢١

واليوم إذا حاولت الربط بين موقف خيثة مالك بن قيس وبين كثير من الناس وجدت مفارقة شاسعة، وتبين لك أن معظم المآسي التي نعيشها بسبب فقدان هذا النظر، ففي هذه القرية النائية أرملة مسكينة، مات زوجها وترك لها عيلاً صغاراً، صاروا بموته يتامى، ودخلهم زهيد، وعيشهم ضنك، ولها أخ يعيش في المدينة كالقاهرة، وقد فتح الله عليه، فما ينفقه في يوم واحد، يكفي أخته ويتامها شهراً أو شهرين ولم يفكر يوماً فيها، لأنه لم ينظر في حاله وحالها ما قال يوماً أنا وأولادي نعيش هذه العيشة المرفهة، فنأكل كل يوم كذا وكذا، وأختي وأولادها يعانون، ولو قال ذلك لهب من مجلسه وسافر إليها وأنعشها، وكذلك تجد والداً أو والدّة في معاناة، وله أولها ابن يعيش في ترف ونعيم، لقد رأينا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عام الرمادة يجوع مع الناس؛ لأنه كان ينظر إليهم، ولو غاب نظره عنهم لطعم وشرب وما شعر برمادة، والله در حافظ إبراهيم حين قال

جوع الخليفة والدنيا بقبضته
في الزهد منزلة سبحان موليا
فلو نظر كل من بيده نعمة إلى غيره من المحرومين لتغيرت
صورة حزينه، وألقى عليها ذلك النظر ظلالاً من الجمال يهنأ معها
الطعام والشراب .

(٤٠) عامر بن لقيط العامري

جاء عامر بن لقيط العامري إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وبشره بأن قومه قد أسلموا، وهداهم الله - تعالى - إلى الحق، وهم على قلب رجل واحد، جاهزون لتلقي أوامره كلهم سمع وطاعة .
فرح به النبي - صلى الله عليه وسلم - ومسح ناصيته، وصافحة، وقال له: أنت الوافد الميمون، بارك الله فيك، رضى الله عن عامر بن لقيط العامري، وعن أمثاله من الذين يحملون البشرى، ويأتي أحدهم حاملاً خيراً إلينا، يبشرنا بأن مشكلة كذا قد حلت، أن أزمة كذا قد انتهت، ولعل الذي يعمل فكرة في هذا الخبر الذي رواه أهل السير يقف عند البعد الحقيقي لما وراء الإسلام، فما معنى أن يأتي رجل مبشراً بإسلام قومه؟ إن معناه الظاهر أن أمة من الناس كانوا يعبدون آلهة من دون الله، وقد هداهم الله إلى عبادته وحده دون سواه وأنهم كانوا يكذبون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصدقوه، وقد كانوا يكرهونه فأحبوه، لكن معناه الأكبر أنهم صاروا شيئاً مذكوراً، بعد أن كانوا نسياً منسياً وإن تعاضم أمرهم، وملأت الدنيا سيرهم فهي سير باطلة، كلها تعصب أعمى، وجاهلية حمقاء، لقد كانوا يشعلون النار في الأخضر قبل اليباس من أجل عنزة أو بقرة أو ناقة أو شتمة أو سبة أو لعنة وهم الآن إن قاتلوا فعندما تقتضى ضرورة القتال، ولن يحرقوا بيتاً على أبرياء، ولن يقطعوا شجرة ولن يهدموا صومعة على عابد تجرد لعبادة ربه وإن كان يعبد حجراً مادام لم يقاتلهم .

لقد كانوا قبل إسلامهم يضيعون عقولهم بالخمير وغيرها، والآن صاروا يحافظون على عقولهم، لا لكي تبقى داخل الأدمغة في ثلاجة، وإنما يحافظون عليها لكي تتير، وتعمل وتخرع، وتبتكر وتفقه الدين

الذى يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعوا إلى عمارة الأرض، لا إلى خرابها، وهذا يسعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقد كانوا يقطعون الأرحام، ويسئون الجوار، وبإسلامهم صاروا يصلون الأرحام، ويحسنون الجوار، قال جعفر بن أبي طالب بين يدي النجاشي: أيها الملك، كنا أهل جاهلية، (نعبد الأصنام، ونسيء الجوار، ونقطع الأرحام، ويأكل القوى فينا الضعيف، فبعث الله فينا رسولاً منا نعرف نسبه وشرفه وصدقه، فأمرنا بعبادة الله وحده وبحسن الجوار، وصلة الأرحام، وأن يرحم القوى فينا الضعيف).

وهذا بلا شك يسعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكل مسلم يعرف مقتضى الإسلام، ومعنى أن هناك أمة قد أسلمت من بعد كفر، وهديت إلى صراط مستقيم من بعد ضلال .

هذا معنى فرح الرسول - صلى الله عليه وسلم - بإسلام الناس، إنه فرح بمقتضى إسلامهم، لا بمجرد إسلامهم فعمد بن الخطاب - رضى الله عنه - فرح المسلمون بإسلامه أى فرح لا لأنه قال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، ونام فى بيته، أو جاء ليتسول ويأخذ من الصدقات، وإنما لأنه عمر القوى الغنى الذى فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل، فكان الفاروق، وقد نذر عمر - رضى الله عنه - فوفى أن يطيع الله فى كل مكان عصاه فيه، فكفر بإسلامه عن خطايا جاهليته، وكذا فرح المسلمون بإسلام حمزة - رضى الله عنه - أسد الله الذى زلزل الكفار إسلامه؛ لأنه لم ينتقل إلى الإسلام بلسانه، وإنما انتقل إليه بسيفه وجهاده، وقوته وماله، وعبقريته وهذا التحول بالكلية هو الذى يسعد الناس بإسلام من أسلم، فهلاً تحول المسلمون أنفسهم بأموالهم وعقولهم لنصرة دين الله الذى ولدوا عليه مسلمين حتى ينصرنا الله .

(٤١) مالك بن الحويرث

حديث مالك بن الحويرث الذى رواه البخاري فى حديثه حديث كلماته معدودة، ومعانيه عظيمة، والدرس المستفاد منه عظيم، فقد هاجر مالك بن الحويرث وأصحابه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وظلوا عنده عشرين يوماً فلاحظ - صلى الله عليه وسلم - فيهم شوقاً إلى أهليهم فقال مالك بن الحويرث، وكان - صلى الله عليه وسلم - رفيقاً فقال: ارجعوا إلى أهليكم، وعلموهم، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أقرؤكم.

وإعادة النظر فى هذا الحديث بعد الأخذ بعين الرعاية والتوقير ما استنبط العلماء من أحكام فقهية منه تقتضى أمرين:

الأول: ملاحظة النبى - صلى الله عليه وسلم - ما بهم من شوق إلى أهليهم دون أن يصرحوا هم به فما قال قائل منهم: إني مشتاق إلى أهلي، وإنما قرأ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم وقراءة النبى - صلى الله عليه وسلم -، ذلك من القراءة التى باتت فى زماننا مهملة، فنحن نقرأ بكل لغة إلا لغة الوجدان، اللغة التى يفتقدها كل حي ينبض فيه قلب، ويتحرك فيه دم، وينفلق فيه كبـد .

فما أكثر الذين هم فقراء إلى تلك القراءة، ومنهم الذين قال الله فيهم: ((تعرفهم بسماهم لا يسألون الناس إلحافاً)) أى تعرف الفقراء بعلامات فيهم تدل على فقرهم دون أن يقولوا لك نحن فقراء مساكين أعطنا ولا يقل عنهم حاجة إلى تلك القراءة رجل غنى فى حاجة إلى أن يقرأ حاجته أحد من مجيبه لا سيما زوجه وأولاده، فهو طلع أو نزل بشر، فى حاجة إلى كوب ماء بارد، والجو شديد الحرارة، وفى حاجة إلى دفء والجو شديد البرودة، وفى حاجة إلى كلمة طيبة تواسيه والظروف من حوله قاسية، وفى حاجة إلى معاملة طيبة، والقلب فى ضلوعه إلى مثلها فقير ومثله كثير من الذين أهمل أهلهم قراءة حاجتهم

وقراءتها غائبة، فملكت عليه نفسه، وأخذته إلى واد سحيق، فصاحبها، أو تزوجها سراً أو علانية وبعد الزواج عادت إليها الأمية المعهودة، فلم تقرأ ولم تكتب، وعاد سيرته الأولى فقيراً إلى مَنْ يقرأ فيه دون أن يعبر عما فيه، وتتوالى المآسي واحدة تلو الأخرى، كلما قرأه أحد لاذ إليه، فلما تمكن من جيبه نسي ما كان يطالعه ونام مع النائمين، فإلى متى هذا العناء في البحث عن قارئ، قد يعلم كذبه، ويصدقه إلى حين أملاً أن يكون هو البغية المنشودة والضالة الغالية .

والثاني: أن الاشتياق إلى الأهل خصوصاً اشتياق من هو بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الفطرة التي لم ينكرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأن أحداً منهم ولا من غيرهم عتب، فقال: كيف يشتاق أحد إلى أهله وهو جالس مع النبي - صلى الله عليه وسلم - يتحدث إليه، ويراه، ويسلم عليه، ويصافحه، ويراه بعينه، ومن مقتضيات الإيمان أن يكون أحب إليه من نفسه وأهله والدنيا جميعاً، ومعنى ذلك أن كون النبي - صلى الله عليه وسلم - أحب إلى المرء من الدنيا وما فيها لا يتعارض والشوق إلى الدنيا وما فيها لاسيما الأهل، وتبقى القضية مثار نظر وتأمل، فإن الاشتياق إلى الأهل في صحبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معناها أن الأهل أهل للشوق، ترى كيف كانت حياة هؤلاء الشباب مع أهليهم الذين اشتاقوا إليهم؟ والجواب تسفر عنه هذه المقولة المذكورة في الحديث الصحيح الشريف، فلك أن تصف تلك الحياة، بكل وصف من شأنه أن يكون ترجمة حقيقية للشوق الذي لاحظته فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حسن عشرة، وطيب مقام. وأنس وموانسة، ومودة، ورحمة، وقد بات هذا - مع الأسف، مفقوداً في حياة الناس الذين ربما غاب بعضهم عن بعض عشرين شهراً لا يوماً، وما اشتاق بعض إلى بعض لسوء ما بين الناس من علاقة يفتقد معها الشوق ولو طال الغياب .

(٤٢) عباد بن شرحبيل

عباد بن شرحبيل الغبدي اليشكري. حدث، فقال: أصابنا عام مخمصة؛ فأتيت المدينة، فدخلت حائطاً (بستاناً) من حيطانها، فأخذت سنبلًا ففركته؛ فأكلته، وحملت في كسائي، فجاء صاحب الحائط، فضربني، وأخذ ثوبي، فأتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بذلك؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما علمته إذ كان جاهلاً، ولا أطعمته إذ كان جائعاً وأمره النبي - صلى الله عليه وسلم - فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام .

هذا موقف من المواقف المهمة التي تكشف كثيراً من العمى عن الراغب في الإبصار، فإن الرجل جاء جائعاً في عام شدة، ووجد بستاناً مملوءاً بالخيرات، فنزله، وأخذ منه سنابل، فركها وأكل، فسد جوعته، وأخذ معه شيئاً إما لغيره من الجائعين، وإما من أجل حين يجوع، فالجوع قادم لا محالة، ولا طعام في الانتظار، فلما جاء صاحب الزرع وجد ذلك عدواناً فأخذ يضرب المعتدى دون سؤال، ما الذي حمله على ذلك

فلما رفع الأمر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - عاتب فيه صاحب الزرع، وبين له أنه كان عليه أن يعلمه لأنه جاهل، أي يعلمه أن كان عليه أن يستأذن صاحب البستان، أن يقول له إني في عام شدة، وأنا جائع، وأسألك أن تطعمني، فإن لم يجبه أحد أكل بقدر ما هو محتاج إليه دون أن يأخذ في ثوبه ادخاراً، وكان عليه في جميع الأحوال أن يطعمه لأنه جائع، ورد عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثوبه الذي أخذ منه، وأمر له من بيت مال المسلمين بنصيب من طعام .

ونحن في الأعم الأغلب مثل صاحب البستان الذي ضرب قبل أن يسأل، وقبل أن يعلم، فنحن نضرب، مَنْ نراه يفعل ما ظاهره العدوان،

(٤٣) عبدالله بن عبدالله ابن أبي سلول

عبدالله بن عبد الله بن أبي بن أبي سلول كان من فضلاء الصحابة، بينما كان أبوه رأس المنافقين بالمدينة وقد أحس عبد الله الفاضل أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد يأمر أحداً من المسلمين بقتل أبيه وهو يرى أن أباه يستحق القتل بلا شك لما فعله وقاله، مما يدل على نفاقه الصريح، وكفره الواضح، فهو الذي قال في غزوة بني المصطلق ((لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)) قال عبد الله ولده: يا رسول الله والله إنه الأذل، وأنت الأعز، والله لقد علمت الخرج ما كان بها من أحد أبر بوالده مني، ولكني أخشى أن تأمر رجلاً بقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض حياً حتى أقتله، فأقتل مؤمناً بكافر؛ فأدخل النار "فإن أذنت لي بقتله قتلتته فقال له - صلى الله عليه وسلم - بل نحسن صحبتته ما دام فينا ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن بر أباك، وأحسن صحبتته".

فهذا رجل حدثته نفسه بما سوف يكون لو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر رجلاً بقتل أبيه فأثر أن يكون هو قاتله حتى يتخلص من حديث نفسٍ قد يكون فحجر الشك و الظنون إلى اليقين وجاء وعاد باليقين من سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم - بأنه لن يأمر أحداً بقتله، وأمره أن يحسن صحبتته وأن يبر به، فعاد مطمئناً

إن قتل الابن أباه أمر في غاية الصعوبة لا سيما الابن البار، لكن ذلك أهون من قتل مسلم بكافر، والرجل قد أسلم كي يفوز بالجنة، فلما عنَّ له أمر يعلم أنه سوف يدخله النار نأى بنفسه عنه فإن قال قائل: وما الفرق بين أن يقتل هو أباه أو يقتل غيره أباه؟ فالجواب أن هناك فرقاً كبيراً بين أن يقتل مسلم أباه، فيقتله به فيقتل مسلماً بكافر، وبين أن يقتل هو أباه بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمره - صلى الله عليه وسلم - دين والالتزام به واجب، فمن في الناس من ينحو هذا النحو،

ونحكم على الناس قبل أن يقول فيهم القضاء كلمته، أليس هذا حالنا، نتهم الولد بالفشل الذريع؛ لأنه لم يحصل على مجموع كبير، دون أن نقول: معذور فلا كتاب في يديه، ولا أستاذ تلمذ له وتعلم على يديه، ولم نوفر له من فرصة للتفوق، نحن نريده عبقرياً بلا أدوات، وأستاذ بلا مقومات، وكذلك نطلب من كل مَنْ تخرج في كلية الطب أن يكون ماهراً عبقرياً دون أدوات ونحكم على المدرس الذي يخرج من مدرسته طوافاً على بيوت الناس يعلم أبنائهم بمقابل بأنه مجرم ومخالف للقانون ويستحق الإعدام ' ونحن على علم بأن راتبه لا يكفيه وحده مدة أسبوع فضلاً عن هم في رقبته من زوجة وأولاد وأرحام، كلهم جائعون، نحن نطلب منه أن يكون على صراط مستقيم برغم اعوجاجنا في حل مشكلاته، ولا شك أننا نكون على صواب إذا وفرنا له حياة كريمة، وخالف النظام واللوائح، فما الداعي إلى تلك المخالفة وقد توفرت له تلك الحياة التي تغنيه .

وفي ضوء هذا الموقف نتعلم أننا قبل الضرب والحكم المشدد علينا أن نعلم الجاهل، ونطعم الجائع ثم يكون بعد ذلك الضرب، وتكون الأحكام المشددة وغير المشددة، لأن لها محلاً الآن، فنحن نضرب عالماً تبين له الرشد من الغي، ونضرب شبعان ريان، عنده ما يكفيه ومدّ يده إلى حرام حرم عليه، أما أن نضرب جاهلاً دون أن نعلمه فمعناه أننا نصنع مجرمًا، وأن نضرب جائعاً فمعناه كذلك أننا نشجعه على أن يأكل من بعد ويسرف، فنحن نفسد من حيث نظن أننا نصلح، ونريق دماء بريئة ونحن نحسبها مذنبية تستحق القتل وزيادة!

فيقدر الأمر قبل أن يقدم عليه ويكون حب الله ورسوله أشد حباً مما سواههما، ويؤثر حكم الله ورسوله على بره وعاطفته .

إن مثل عبد الله بن عبد الله من معالم الطريق إلى اليقين رجل يعرف كيف كان ليله ونهاره من كابد مثل الذي كابد، فهو مسلم وأبوه رأس النفاق، ويتوقع في كل ساعة أن يأتيه خبر أبيه، وأن فلاناً من المسلمين قتله، فإذا به يمشى فيراه أمامه فتتنازعه نفسه الأمانة بالسوء، ويتنازعه اليقين والرضا بأمر الله ورسوله، ومن الجائز أن تغلبه نفسه، فإذا بيقينه الذي يبتغيه عمره يضيع في لحظة هي لحظة عمى، وما أشد آثار هذه اللحظة على حياة الإنسان لو فكر في آثارها مبصراً لما غرق فيها واشتهاها، ولا تعجب من هذا التعبير، فهناك من يشتهي لحظة العمى ويطلق عليها منتهى الإبصار، فهو يقول: أنا على يقين من أنني أبدأ لن استمال إلى شر، لو قتل أبي، من قتله فلن انظر إليه بسوء، وإذا بالواقع يشهد بغير ذلك، ومن الناس من يظن أنه إذا ضرب إنساناً فلن يزيد عن الحد المطلوب، فإذا به يقتله، ولو فكر في قتله لما أقبل على ضربه وقد قال الله - تعالى - ((ولا تقربوا الزنا)) وكثير من الناس يقرب الزنا ويقع فيه عن قريب، وقد كان يقول: أنا لا أزني أبداً، وأنا فوق ذلك إلى أن يرى نفسه قد وقع فيه، بسبب قربه منه، لأن الأمر قد يبدو سهلاً في أول هذا القرب ثم يزداد القرب حتى تقع الكارثة، وكان قبل وقوعها يقسم بوكيد الأيمان أنه لن يقع فيها كالذي يظن قبل أن يدمن التدخين أنه لن يجاوز سيجارة واحدة فإذا به يقضى على علب، وكالذي قال الله فيهم ﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ المائدة: ٧١.

ظنوا أنهم لن يحدثوا فتنة فإذا هم عمى وصم وأعموا غيرهم وأصمهم فالسعيد من ينأى عن مواضع الريب والشبهات .

(٤٤) عبدالله بن هشام

اسمه عبدالله بن هشام بن عثمان بن عمرو القرشي ذهب به أمه، زينب بنت حميد، وقيل زينب هذه جدته، وهو طفل صغير إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وقالت: يا رسول الله، بايعه، فقال عليه الصلاة والسلام: إنه صغير، ومسح رأسه ودعا له بالبركة وشب عبد الله بن هشام، وصار رجلاً وفي طريقة إلى السوق وجد رجلين أحدهما ابن عمر ينتظرانه

• إلى أين يا عبد الله؟

• إلى السوق

• ماذا تبتغي؟

• أشتري حباً

• هل تسمح أن نكون شريكين لك؛ لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا لك بالبركة

• على بركة الله

اشترى عبدالله بن هشام الحب، وقسمه على ثلاثة. وأرسل نصيبه (الثلث) إلى بيته، فلما وصل نصيبه إلى بيته لم ينقص حبة واحدة. روى ذلك البخاري في صحيحه.

والسؤال: هل كان ذلك بسبب الدعاء وحده أم أن هذا الدعاء من باب الخير الذي صادف أهله؟

وهذا هو الحق؛ فقبل الدعاء ذهبت به أمه زينب بنت حميد، من أجل أن يبايعه النبي - صلى الله عليه وسلم - .

على ما يبايع عليه الرجال من الجهاد لنصرة الدين، وعزم الأمور، ما ذهبت من أجل دعوة وكان مولد عبد الله بن هشام سنة (٤) هـ في السنة الرابعة للهجرة الغراء، لكنه - صلى الله عليه وسلم - قال لها إنه

صغير، ومسح على رأسه، ودعا له بالبركة، فوافقت محلاً مباركاً، فبارك الله فيه، وكان ما كان مما روى.

إن مثل هذه المرأة التي حملت صغيرها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - كي يبايعه أدركت أنها لا تلد إلا خادماً للدين، ودت أن يكون رحمها مصنعاً للأبطال، لا مفرخاً للعيال ومن صدقت في ذلك ربت ابنها على شيم الرجال وزرعت فيه هذا المعنى، فهي تسقيه لبن الحياة من أجل أن يقوى، فيقوى به غيره من الناس، وأن يدافع عن حرمت دينه، ومقدساته، صراحة بالقول، ومصداقاً بالفعل، أما التي ترى أن رحمها مفرخة للعيال فهي مجرد أنثى ولود، لا يعنيه أمر وليدها، شجاعاً نشأ أم جباناً، صادقاً كان أم كاذباً، إن دورها في الحياة أن تفرخ البغات والأضغاث، على النحو الذي قيل فيه لكل عروس ((غلبه بالعيال ويغلبك بالمال)) وكأن الحياة ساحة مغالبة بين زوجين، على الزوجة أن تقهر زوجها وتحنى ظهره بكثرة العيال، وهو أعانه الله، يواجهها بكثرة المال حتى تستطيع إطعام الأفواه الجائعة، وتكسو الأجسام الممزقة، التي تنشأ على العبث وتنادى (يا واد ... ويا خسران ويا ضايع ويخرب عقلك) أسوأ دعوة في الدنيا، الدعاء بخراب العقل التي تسفر عن أجسام البغال وأحلام العصافير لدينا أمة من الأطفال، هم الوبال على الأمة، هم أطفال شوارع وإن كانوا في البيوت، فلا بيت يصلح لاحتواء هذه الأعداد الرهيبة، ولا طعام يكفى، إنهم سلاسل يربط بها الأزواج حتى لا يلعبوا بذبولهم هنا أو هناك، مهمتهم في الحياة أن يكدحوا من أجل إطعام الكتبية التي لا مناخ لها من صحة وتعليم وثقافة، حولوا الشارع ملعب كرة، ونشروا أسوأ الألفاظ، وارتكبوا أبشع الجرائم، غلبت المرأة بالعيال أمة كاملة لا رجلاً واحداً هو زوجها، وهو مع الأسف لم يغلبها بالمال وإنما عجز عن مواجهة الثمرة السوداء، التي ألقى بها في مهب الريح، وصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث قال ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج)).

(٤٥) عبدالرحمن بن سمره

اسمه عبد الرحمن بن سمره بن حبيب بن عبد شمس بن مناف أسلم يوم الفتح، وكان اسمه عبد الكعبة؛ فسماه النبي - صلى الله عليه وسلم - عبد الرحمن، وكان أميراً على البصرة.

قال له النبي - صلى الله عليه وسلم - يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإني إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على أمر، ورأيت غيره خيراً منه فكفر عنيمينك وأنت الذي هو خير ((

والشاهد أنه - رضى الله عنه - كان في اليوم المطير يلبس برنسا، ويأخذ المسحاة، يكنس الطريق .

لم تكن هناك كاميرا تصوره ليشاهده الناس، وإنما كانت عين الله تراه.

وهو بلا شك يعبد ويتقيه ويراقبه، ولم تكن هناك مصروفات للماء كالموجودة في بلاد الناس والمعتلة في بلادنا.

أراد عبد الرحمن بن سمره أن يميظ الأذى عن طريق الناس، وهو يعلم أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، بل إنه من المعهود عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يميظ الأذى عن التمرة، يمسح عنها التراب ويأكلها إن لم تكن من الصدقة، أو خشي أن تكون منها، مع أن الأمة كلها خدم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن المرء إذا عمل بيده عملاً كان ذلك رفعة له وسمواً، وكان أحرى أن يتبع، ودليل ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قام بنفسه يبنى بيوته، بيده الشريفة، فلما رآه الناس هبوا إليه، وبنوا معه وقد قالوا

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

(٤٦) عثمة أبو إبراهيم الجهنى

رجل من الأنصار، أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقراً فى وجهه الجوع فسأه ذلك، وانصرف إلى أهله ليحضر إليه طعاماً، فلم يجد فى بيته شيئاً، فمضى إلى بني قريظة، وهم يهود، وأجر نفسه، ليسقي زرعهم كل دلو بثمره، حتى جمع حفنة من تمر، وجرى بها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوضع التمر بين يديه فقال له - صلى الله عليه وسلم - إني لأظنك تحب الله ورسوله ! قال: أجل، والذي بعثك بالحق لأنت أحب إليّ من نفسي وولدي وأهلي ومالي.

ومعاذ بن عفراء - رضي الله عنه - كان يجلس إلى جوار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومروّ رجل بكبش، فسر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - به إذ رآه، وقال: ما أشبه هذا الكبش بالكبش الذى فدى به إبراهيم ولده، فقام معاذ وذهب إلى السوق، واشترى مثله وعاد به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذبحه وأكل منه، وأعطى بقيته المساكين .

موقفان من مواقف كثيرة، ومنها موقف جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - حين لاحظ الجوع فى وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذبح له شويهة (تصغير شاة) كانت عنده، ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليها جميع الناس فأكلوا جميعاً ببركته - صلى الله عليه وسلم - .

تلك المواقف دليل صدق على الحب الذى صار فى حياتنا إنشاداً بالكلام، لا حرصاً على توفير الطعام وتحقيق السعادة للمحبوب، وقد يسأل مَنْ لا دراية عنده بالمعاني ويقول: ترى لو كان بين أيدينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أما كنا فعلنا معه هذا وزيادة.

والجواب: أن من أطعم مسكيناً كأنه أطعم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن أكرم مسلماً كان كمن أكرم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وفرق كبير أن تقول لولدك: قم فأعد لي كوباً من الشاي، وبين أن تقوم أنت بإعداده، فإنه إن رآك تقوم هب، وما هان عليه أن يراك تصنع لنفسك شيئاً وهو قادر على أن يكفيك، فالفعل أشدّ تأثيراً فى النفوس من القول لا سيما إذا كان هذا القول أمراً، فالأمر صعب على النفوس، يهون منه أن يبادر الأمر بنفسه، فيفزع لقضاء حاجة

وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - للناس يوم الحديبية، احلقوا، واذبحوا هديكم فلم يتحركوا، حتى دخل على أم سلمة وقال: هلك الناس، فلما قالت له، احلق رأسك واذبح هديك فإنهم إن رأوك تفعل فعلوا، سمع لمشورتها، وخرج، فدعا حلاقه فحلق وذبح هديه ففعلوا جميعاً مثله - صلى الله عليه وسلم -

وأبو بكر - رضي الله عنه - حين رأى حرجاً فى صدور الناس من بعث أسامة بن زيد أميراً على الجيش وهو لم يبلغ العشرين، خرج، وعامله كما يعامل الأمير فاستأذنه أن يبقى معه عمر، وتركه راكباً، وكان وهو الخليفة ماشياً، حتى قال أسامة: والله لتركبن أو لأنزلن، قال: لن أركب، ولن تنزل، ومالى لا أغبر قدمي فى سبيل الله ساعة حتى رضى الناس ولو أن كل مسئول غبر قدميه فى سبيل الله ربع ساعة لتغير وجه الحياة، لدينا مسئولون كثير لا يتركون من غرفتهم، ولا يرون شيئاً، يصدرون الأوامر ناصعة ولا يتابعون أمراً منها، وحين تخرب الدنيا من حولهم يقولون: أصدرنا تعليمات، وقلنا توجيهات، وحذرنا، ونبهنا، وشددنا، وتوعدنا، وكل ما عليهم إحالة الأمر إلى التحقيق، ثم يعودون أدراجهم سادة شرفاء مصلحين غير مفسدين، ولو اتقوا الله ربهم لأخذوا من هذا القبس نوراً يهديهم سواء الصراط، فإذا بالحياة تأخذ شكلاً آخر من الجمال المنبعث عن الإنجاز .

(٤٧) حضرى بن عامر

حضرى بن عامر بن مجمع بن موله من خزيمه جاء مع قومه، فأسلموا، وظلوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أياما يتعلمون القرآن .

كان لحضرى جماعة من الإخوة، ماتوا، فورث أموالهم، وخرج يوماً وعليه حلة بعضهم، فقابله رجل اسمه جزء، فقال: ما يسر الحضرى أن إخوته أحياء وقد ورث أموالهم.

فقال له حضرى، لا قيت مثلاً عاجلاً إن كنت كاذباً، واللهم ما يسرنى موتهم وإن ورثت أموالاً بعدهم .

وكان لجزء إخوة، حفروا بئراً، فانهارت عليهم جميعاً، فصارت قبرهم، فبلغ ذلك الحضرى، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون . وافقت عاجلاً، وأورثت حقداً .

أى أن هذه الدعوة وافقت أجلهم، أى أنه لم يعتقد أنها دعوة مستجابة، وإنما اعتقد أنهم ميتون لا محالة فى هذا الوقت دعا أو لم يدع لكنها أورثت حقداً بينه وبين جزء .

فمن يفهم جزءاً هذا أنها وافقت أجل إخوته، إن سواداً ألم به بسبب دعوة الحضرى عليه والدرس العظيم المستفاد من ذلك إلا يتعجل المرء بالدعاء على أحد، وقد دعا النبى - صلى الله عليه وسلم - على المشركين شهراً، فنزل قول الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) آل عمران: ١٢٨

فلم يدع صلى الله عليه وسلم - عليهم بعد نزولها .

وقد تكون دعوة الحضرى دعوة مستجابة؛ لكنه من الصعب الكرام، الذين يتواضعون، فلا يزعم أنه قد أجيبَت دعوته، ولا يزكى

عليه وسلم - ويكفيك دليلاً على ذلك ما روى فى الصحاح من قوله - صلى الله عليه وسلم - : أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين)) ولن يكون قريباً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا مَنْ أحبه، والحب عند المصطفى حب مقتضى، لا حب إنشاد، ونحن فى حاجة إلى غرس هذا المعنى فى بناء الشخصية المسلمة فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أغنى الناس عن طعام الناس بدليل أنه قال: لست كهيتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني، والجوع فى حياته - صلى الله عليه وسلم - تشريع كما كان كل شيء فى حياته عليه الصلاة والسلام كذلك

حتى النسيان، قال فيه كما روى البخاري فى صحيحه (إنما أنسى لأسن) أى حتى لا يقتل الناسى نفسه إذا نسى، فلا يتصور أحدٌ أنه جاع - صلى الله عليه وسلم - عن حاجة أو فقر وإنما جاع ليقراً المحبون الجوع فى وجهه، ويبادرون إلى إهدائه حبا وكرامة، وهو يقبل منهم ويشبهم، وتبقى السيرة العطرة من بعده نبزاً فى حياة الناس ناطقاً بآيات الهدى، تقول مفردات تلك الآية مَنْ أراد أن يعرب عن حبه لحبيبه فليترجم عن ذلك بعباء، وليتبع العطاء بكلام إن أراد، فإن لم يتكلم كفاه ما قدمه أصدق تعبير عن مشاعره إنَّ عثمَةَ أبا إبراهيم الجهنى قرأ، وعاد إلى بيته ليحقق مقتضى ما قرأ، فلم يجد فى بيته شيئاً فاجتهد، ولكل مجتهد نصيب. ذهب إلى اليهود وعرض نفسه. بكم الدلو، أسقطه فى البئر وأسقى به زرعكم؟ فقل كل دلو بتمرة فعمل، عشرين أو ثلاثين دلواً حتى جمع حفنة من تمر، وهرع بها إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو فى مجلسه لما يتحرك منه، ووضع التمر بين يديه وهدأت نفسه حين رآه يأكل منه، وقد عبر عن ذلك المصطفى المختار بقوله إني لأظنك تحب الله ورسوله أى هذا دليل حبك فهل من مبصر هذا الدرس !

نفسه، وقد استرجع الرجل، أى قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، أى تلك مصيبة، والله عز وجل، يقول:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ البقرة:

١٥٥ - ١٥٧

ثم قال العبارة ((وافقت أجلاً، وأورثت حقداً)) فانظر كيف قال أول ما قال: وافقت أجلاً إيماناً منه بأن نفساً ما كان لها أن تموت إلا بإذن اله كتاباً مؤجلاً ثم قال معرباً عن ندمه ((وأورثت حقداً)).

وكم فى الناس من مورث غيره حقداً بسبب الدعاء عليه، إذا وافق دعاؤه قدر الله - عز وجل -.

فإن المصاب لا سيما ضعيف الإيمان لا يقول قضاء الله فى مثل هذه الحالة، وإنما يقول: هي دعوة فلان أما وقد تحققت فى الظاهر فإن الحقد يدخل من أوسع الأبواب، ولذا وجب على المبصرين إذا ما غضبوا أن يكونوا كما قال الله عز وجل فى أية الشورى ((وإذا ما غضبوا هم يغفرون)) الآية ٣٧

ما قال الله - تعالى - وإذا ما غضبوا دعوا على من أغضبوهم، وإنما وصفهم بما رضى به عنهم، بأنهم يغفرون، ويعفون، ويصفحون، ويتركون الأمر لصاحب الأمر، وما أكثر الغاضبين الذين يحملهم الغضب على التسرع فى الدعاء على من أغضبهم إلى درجة أن الأم تدعو على ولدها أو بنتها إذا غضبت، ولأتفه الأسباب، وبدعوات سيئة منها الشلل والعمى وأن يدوسه قطار، وأن تشرب ناره وأن تراه تحت (لورى)، وأن تراه أشلاء على الأسفلت، وألا ينجح أبداً، شيء مرعب، هذا الدعاء السيء الذى قد يورثها بغضاً لنفسها إن وافقت دعوتها قدر الله - عز وجل - أو كانت ساعة إجابة، فلا تلومن إلا نفسها، وقد تورث ولدها الحقد عليها بقول: لولا دعوتها ما أصابني ما أصابني، فالفعل أوسع، والله يفعل ما يشاء.

(٤٨) ربعة بن رواء العنسى

شيء من الخوف

قدم ربعة بن رواء العنسى على النبى - صلى الله عليه وسلم - فوجده يتعشى؛ فدعاه إلى العشاء، فأكل، وبعد أن أكل قال له: قل: أشهد إلا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فقال؛ فسأله - صلى الله عليه وسلم - رغبة أم رهبة؟

فقال أما الرغبة فو الله ماهى فى يدك، وأما الرهبة فو الله إننا فى بلاد ما تبغنا جيوشك، ولكننى خفت، فخفت، وقيل لى: آمن فأمنت، فقال عليه الصلاة والسلام: رب خطيب من عنس.

أسلم ربعة، وحسن إسلامه، ووادع أهل قرية، ومات عندهم **والدرس المستفاد من هذا الموقف** أن للخوف تأثيراً فى القلوب، فالدعوة على أساس الترغيب وحده دعوة ناقصة، إذ لا بد مع الترغيب من ترهيب، والدليل على ذلك قوله تعالى ((﴿يَعْبُدُونِي﴾ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ الحجر: ٤٩ - ٥٠. والحديث عن الخوف حديث طويل فى كتاب الله - عز وجل - ومنه قوله تعالى ((وإياي فارهبون))

وقوله تعالى ((وإياي فاتقون))

وقول عز وجل ((يأيها الناس اتقوا ربكم)) وقوله عز

وجل ((ويحذرکم الله نفسه)) وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦١﴾﴾ التحريم: ٦

ونداء الذين آمنوا بأن يتقوا النار، وأن يجنبوها أنفسهم وأهلهم دليل على هذا الأمر وهو جد مهم، والذين يؤمنون بذلك ويخافون، يؤمنون ويزدادون إيماناً والرجل قد خوف فخاف، فهده خوفه إلى

الإيمان، وقد ورد في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، فجاء التعبير بالخوف، الذي حال دون مواقعتها، ما قال إني مسلم، ولا إني من قوم لا يزنون ولا إني أعن هذه المعاشرة فأنا حر، وإنما قال إني أخاف، وقد قال الله عز وجل ((أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ٢٤)) الزمر: ٢٤

أى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة خير أم من لا يتقى. وفي سورة هود يقول الله - عز وجل - ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظِلْمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ١٠٣ هود: ١٠٢ - ١٠٣ وفي ذلك دليل واضح على أن العبرة لا يعتبر بها إلا من خاف، أما الذى لا يخاف فلن يعتبر وقد قال الله فى آية آل عمران ﴿إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ آل عمران: ١٧٥

فماذا بعد الأمر الصريح من الحق تعالى عباده بأن يخافوه. وأنت ترى فى الحياة من تبدد حسه بسبب الغرور وغيره تقول له: إن فعلت كذا حبستك فيقول: لا يهمنى، قتلتك، فيقول لك: تعال وهذه هي السكين، بالله عليك هل يجدي مع مثله توجيه أو نصح، إن التى تخاف غضب زوجها تحرص على رضاه، والتى زرع فيها عدم الخوف منه، فإن تركته تزوجت سيد سيده أمرها فرط، وكذا من يخاف الفصل من وظيفته يحضرها مبكراً ويؤدى عمله بإتقان، ومن لا يخاف ذلك أهمل، والإهمال نتيجة عدم الخوف، فإن أردت أن تبني شخصية مسلمة على أساس فروعها بالرجاء وحذرهما لتخاف فإن ذلك لا يأتي إلا بخير .

(٤٩) الطفيل بن عمرو الدوسى

الشريف الشاعر اللبيب الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم الدوسى، صاحب لقب ذي النور جاء مكة فى مشرق الدعوة فالتف حوله أكابرا لمشركين لمكانته وعلو منزلته وحذروه أن يسمع محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا له ساحر، يفرق بين المرء وزوجه، والولد ووالده، والسيد وعبد، وظلوا كذلك حتى وضع الكرسف أى القطن فى أذنيه حتى لا يسمع، ثم عاد فقال: ماذا فعلت؟ أى عقل هذا؟ إني رجل عاقل وشاعر، واستطيع التمييز بين الكلام، لم لا أسمع وأحكم؟

لحظة إصار، ذهب إثرها إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى داره، وقال له: أبى قومك أن أسمع، وحذروني، وأبى الله إلا أن أسمع وعرض عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الإسلام فأسلم، وقصته فى دعوة قومه، حيث أبوا عليه وقد أسلم أبوه وأسلمت زوجته، فلما أبى قومه عاد إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال له: غلبتني دوس يا رسول الله؛ فادع عليهم؛ فقال - صلى الله عليه وسلم - اللهم اهد دوساً.

إن الدرس العظيم المستفاد من قصة إسلام الطفيل بن عمرو هو درس الفكر وإعمال العقل والتبيين، لا إهمال العقل وإتباع الناس دون تفكير.

إن الشاب يعرج على أمه أو أخته قبل أن يعود إلى زوجته فإذا بها أمّا كانت أو أختاً تحكى له عن زوجته ما يصيبه بحالة سيئة تتغير فيها نفسيته وقد يطلقها قبيل عودته إليها دون أن يسمع منها كلمة واحدة، ودون أن يحقق فيما سمع.

بل إن بعض الهواة من المتقنين والدعاة يلعن كاتباً؛ لأنه كتب كتاباً يعادى فيه الله ورسوله وهو لم يطلع عليه، ولم يقرأ فيه صفحة واحدة،

ولو أفاد من هذا الدرس لما نطق بكلمة ولا عادى كاتباً اتهمه من اتهمه كذلك أو قرأ له فلم يفهم.

بل إن من هؤلاء من يذكر كتباً ويستشهد بما فيها وهو لم يرها أصلاً، وإنما سمع الناس يقولون شيئاً فقال، وما أكثر الناس الذين قالوا سمعنا من فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأذاننا كان الرجل يقول ((من فيه إلى أذني)) وكان الرجل يقول: ((سمعت أذني ووعاه قلبي، وحين حدث جابر بن سرّة أنه عرف النبي - صلى الله عليه وسلم -، سكتين بعث الناس إلى أبي بن كعب يحققون من ذلك لأنهم عرفوا عنه سكتة واحدة في الصلاة، فرد عليهم أبي بن كعب - رضى الله عنه - بقوله: عرف، نعم كان له - صلى الله عليه وسلم - سكتتان، الأولى بعد تكبيرة الإحرام والثانية بعد قراءة الفاتحة .

وكان الرجل يسافر من المدينة إلى مصر أو منها إلى الشام من أجل حديث كان مع صحابي سافر إلى مصر، أو إلى الشام، يبذل في ذلك الجهد الكبير من أجل التثبت، وقد عمت الفوضى في هذا السياق فأنت ترى أمة من الناس تتناقل الكلام، ومن ينقل كلمة يضيف إليها عشرًا، كل ذلك دون تحقيق وكم من مسلم أذنيه رجلاً حاقداً أو جاهلاً مدعياً أنه لن يسمعه إلا الحق، ولن يقول له إلا الصدق ولو صبر حيث سمع ولم يبين على سماعه هذا حكماً كان خيراً له، ولآخرين ممن ظلمهم أو حاباهم أو جاملهم، يترتب على التحقيق ما يترتب على الفرط ((وكان أمره فرطاً)) والثور إذا فرط إما أن يهدأ قليلاً وإما أن يثور ويهيج كثيراً؛ لأنه غير معقول، أى مربوط، والعقل أقوى رباط يحول دون وقوع كوارث في الدين والاجتماع والحياة بشتى صورها، أعمل الطفيل بن عمرو الدوسى عقله فسمع وهواه الله، وعسانا أن نتعلم فنسمع ونتحقق قبل أن نتمادى في الضلال.

(٥٠) علبه بن زيد

علبه بن زيد بن صيفي من بني حارثة، أحد البكائين الذين قال الله - تعالى - فيهم **وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحْضَاكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ** التوبة: ٩٢

وقد حض النبي - صلى الله عليه وسلم - على الصدقة - هكذا قال علبه - فجاء كل منهم أى من الناس بطاقته، ونظر علبه بن زيد فقال: ليس عندي مال أتصدق به، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الله - عز وجل - قبل صدقتك، إن الدرس الغائب عنا اليوم هو ذلك الدرس، النظر، والاجتهاد وإعمال العقل الذي لا يأتي إلا بخير، ودعوة إلى الصدقة وامتنال كل مدعو لدعوة خير من دعا إلى خير - صلى الله عليه وسلم - فلما لم يجد علبه مالا فكر بأى شيء يتصدق، فقال: أعفو عن خلق الله الذين ينالون من عرضي، ونال القبول، والصدقة هذه التي تصدق بها علبه بن زيد ليست صدقة هينة، وإنما هي صدقة عظيمة، تؤدي إلى إصلاح، فقد آن للرجل الآن أن يمشى بين الناس سليم الصدر لا حقد في قلبه ولا سواد، ولا بغض، ولا رغبة في انتقام، فقد تخلص من ذلك كله بصدقته كما تخلص المتصدق بالمال من هذا المال الذي تصدق به، خرج منه عن رضا واحتساب، فهو سعيد بما أخرج يرجو ثوابه عند الله - عز وجل - وكذلك مثل علبه بن زيد - رضى الله عنه - وأن له الآن أن ينام قرير العين إذا استدعت عيناه النوم لباهما، لأن كثيراً من الذين لا يعرفون تلك الصدقة يحول بين أعينهم وبين النوم الذي يشتهون تفكيرهم في الذي نال من عرضهم. كيف نال منه؟ وكيف سبهم ولعنهم وانتقصهم وهم أهل الكمال فيما يرون، والذي نال من أعراضهم

هو من أهل الخسة والنقيصة، وهم ينتظرون طلوع النهار حتى يردوا له الصاع صاعين ويلعنوا حيهم وميتهم، مع أنهم عند طلوع النهار لن يفعلوا شيئاً، وإنما هذا دأبهم، وتلك عادتهم كدر الليل والنهار وهم المنام واليقظة، أما وقد تصدق هؤلاء - إن فعلوا كما تصدق علة بن زيد فلم يعد مجال لجلب الكدر والهم.

والصدقة هذه لا تغنى عن الصدقة بالمال، لأن المال عصب الحياة وقوامها، لكن يجوز الأمران معاً أى الصدقة بالمال والصدقة بالعرض فإن عدم التصديق بالعرض قد ينال من الصدقة بالمال وذلك بالمن والأذى خصوصاً إذا أساء من تصدق عليه فإن لم يجد المرء مالا يتصدق به تصدق بعرضه والله - عز وجل - يتقبل منه كما يتقبل من علة بن زيد - رضى الله عنه -.

وهذا له امتداد في إثراء الفكر الإسلامي المستتير، حيث الإصرار على عمل ما يرضى الله عز وجل، ففي الدين متسع للغنى، والعالم وذي الصحة الذى ربما لم يجد مالا، وإنما يجد عافية في بدنه يستطيع أن يقدم من خلالها الكثير، فيعين عاجزاً، ويصلح فاسداً، ويدفع أذى عن الطريق، وقد يعدم الرجل ما يقدمه من مال لكن يستطيع أن ينصح لرب المال، فيعمل بماله مضارباً، ويحرس صنيعته من الضياع، وقد يستقبل زواره، ويودعهم، وقد يخدمه خدمات تربو على المال يقدمه، أما أن تتعطل حركة الجهاد لفقد المال، ويحل النوم محل الحركة، ويقول كل من فقده: ما باليد حيلة فهذا ليس من الدين فى شيء، وقد يغفل المرء عن زوجته التي لا وظيفة لها ويذكر زوجة زميله الموظفة التي تدر دخلاً على زوجها بينما زوجته تقوم بأعمال جليلة فى خدمته وتربية أولاده .

(٥١) أبو سعيد بن المعلى

هو الحارث بن نفيع بن المعلى بن لوذان بن حارثة بن زيد بن ثعلبة، الأنصارى الزرقى، وأمه أميمة بنت قرط بن خنساء من بنى سلمة، معروف بحديثين، أحدهما أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن، قبل أن تخرج من المسجد، فلما كانت لحظة خروجه ذكره، فقال - صلى الله عليه وسلم - هي الحمد لله رب العالمين، رواه البخاري، ومعنى ذلك أن أعظم سورة فى القرآن الكريم، هي الفاتحة، فإذا ذكرت ما قاله العلماء فى أفعل التفضيل، وأنه يخرج عن بابيه، بمعنى أن أعظم ليس معناه أن الفاتحة أعظم من البقرة، وغيرها من السور، وإنما معناه أنها عظيمة وقد وصف الله تعالى القرآن كله بقوله ((والقرآن العظيم)) لكنه فى هذه الآية من سورة الحجر قال

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (٨٧) الحجر: ٨٧

والسبع المثنى فاتحة الكتاب، سميت بذلك لأنها تتثنى أى تكرر فى الصلاة وغيرها، ومادامت قد خصت بالذكر هنا فإن لها سرّاً يعرب عنه الحديث الصحيح الذى عرف به أبو سعيد بن المعلى بأن لفاتحة الكتاب فضلاً، ولعله بلا ريب سبب التكليف بقراءتها فى كل ركعة، حتى فى صلاة الجنازة، وهى تبدأ بسم الله الرحمن الرحيم، وكل أمر ذى بال، لا يبدأ بسم الله فهو أقطع أى: لا خير فيه ولا بركة، والله عز وجل يقول: الحمد لله رب العالمين بعد البسملة، والحمد: الثناء، وهو ليس باللسان، فما أكثر الذين يحمدون الله - تعالى - بألسنتهم، وحالهم يفارق هذا الحمد إنما يكون الثناء على الله سلوكاً يقتضى اتهام النفس دون الذات العليا، واتهام النفس سبيل إلى تركيتها وسبيل كذلك إلى أن يكشف الغمة عنها ربها عز وجل.

أما إذا ظل المرء يقول: أنا بريء، أنا بلا عيب، أنا لم أقصر، وإنما قصرت الأقدار، فإن ذلك وبال عليه بلا شك، فما قصرت الأقدار، وقد نزلت قبل أن ينزل آدم وذريته في صلبه إلى الأرض التي كانت مهاداً، وجعل الله تعالى فيها سبلاً، وجعل عليها الجبال أوتاداً، وقدر فيها أقواتها وبارك فيها، وسخر جميع ما فيها قبل أن يكون على ظهرها من دابة؛ فما قصرت الأقدار وإنما قصر المكلف، الذي وهب السمع فلم يسمع، والبصر فلم ير. والفؤاد فلم يفكر، والقدرة على الحركة فآثر السكون، وعلم المعادلة انضباطاً وعدلاً فأبى إلا أن تكون فرطاً واعوجاجاً، وهدى النجدين فآثر العمى على الهدى، لقد كان بلا شك ظالماً، فلم يسقط ظلمه على قدره، ويبرئ ساحته منه وهو مستغرق فيه!

وقد ورد كما روى البخاري أن أبا سعيد الخدري قرأ الفاتحة على رجل مريض، فشفاه الله وقد نال هو وأصحابه من مال هذا الرجل شيئاً فأبوا أن يأكلوا منه حتى يستفتوا فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأذن لهم بأكله، وقال: واضربوا لي معكم بسهم مبالغة في حله، ورضاه عنه، ولم تزل الفاتحة وسوف تبقى إلى قيام الساعة هي الفاتحة، ولكن كما يقال: أين مثل أبي سعيد الخدري! وستبقى الفاتحة أعظم سورة في القرآن الكريم فأين من يطلب العظيمة مقبلاً عليها بطيب النفس والجسم والاعتقاد، سائلاً ما صراط الذين أنعم الله عليهم، حيث إنه يقول إذا قرأها: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، أليس الذين أنعم الله عليهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وصراطهم

التوحيد، والجهاد في الله - عز وجل - حق جهاده، وحسن معاملة الناس فأبي منهج أرشد وأقوم من منهج القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين! يا ليت كل مسلم حين يقرأ هذه الآية من فاتحة الكتاب يتذكر أن عليه مع هذا الدعاء عملاً يقترب به، فيراجع نفسه وسلوكه لعل الله يهديه ويهدينا جميعاً صراط الذين أنعم الله عليهم.

(٥٢) أبو شعيب الأنصاري

رجل من الأنصار، معروف بأبي شعيب الأنصاري، كان له غلام جزار، أى عبد يعمل له فى الجزارية، وجاء غلامه، وقال له: اصنع لنا طعاما يكفى خمسة رجال فإنني لحظت الجوع فى وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأردت أن أدعوه خامس خمسة، فصنع غلام أبى شعيب، ودعا أبو شعيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمس خمسة، وبينما فى الطريق تبعهم سادس؛ فلما بلغوا الباب، قال - صلى الله عليه وسلم - : إن هذا اتبعنا فإن شئت أن تأذن له، وإن شئت رجع: فقال أبو شعيب: بل أذن له رواه مسلم، وفيه من الدروس والعبر الكثير من ذلك أن أبا شعيب قرأ القراءة التي أطلق عليها قراءة المعاني التي لم تحملها سطور الحروف، أن تقرأ الحال، فللحال لسان، لكن لا يدركه إلا الوجدان، وقراءة الجوع تقتضى إعداد طعام للجائع، وقراءة البؤس تقتضى إزالة البؤس عن البائس، وقراءة النشوز تقتضى إصلاح حال الناشز قبل أن يقع النشوز، وقراءة المبنى تقتضى إصلاحه قبل أن ينهار على رؤس ساكنيه، قراءة الحفر الصغيرة على الطريق تقتضى إصلاحها قبل أن تتسع وتقع الكوارث، وقراءة الواقع الميرر تقتضى إصلاحه قبل أن تقوم القيامة، قيامة المظلومين والمنكوبين، والمتضررين من القرارات القاسية والمرتببات الضعيفة، وقراءة الكون التي سبقنا إليها غيرنا تقتضى الابتكار، والاختراع، والوقوف على أسرار الكون وإخراج كنوزه إلى أرض الواقع لرفع الناس من وحدة هابطة إلى قمة عالية.

ومنها أن أبا شعيب أعلم غلامه بأنه عزم على دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بذلك يشعره بأن الضيف ليس كأي ضيف، وأن العناية بالطعام وإعداده سوف تكون على القمة، لأن المدعو إليه

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أعلى قمة، وقد يقول المرء لزوجته: أعدى طعاماً غداً فعندنا ضيوف، والأولى أن يسميهم، وأن يذكر عددهم لكي يخرجوا من بيته كراماً، قال تعالى ((هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين))

أما عدم التحديد، وذكر الضيف فليس من المروءة ولا من السعي إلى تقدير الأفضل، وبعض الناس يقول: لا يعنيها هذا، ما عليها إلا الإعداد، مالها ومال المدعو، عظيماً كان أو دون ذلك، كثيراً كان العدد أو قليلاً، ومنها ذكر العدد كما أشرت، قال أبو شعيب لغلامه: (خامس خمسة؛) أى جملة المدعوين خمسة، وتحديد العدد مهم فى الاقتصاد، ومن قديم قال الناس: ما افتقر من اقتصد، ونحن نرى أناساً يعدون طعام عشرة من أجل ضيف واحد تباهاً وتفاخراً، ويأليت ما بقى منه ومنهم، يوجه إلى المساكين، واليتامى المحرومين، ولكن ما بقى - وهو كثير - يرمى مع الأسف، وفى ذلك من التبذير ما لا يخفى ومن تلك الدروس أن الرجل الذى تبع الجماعة وسيدها - صلى الله عليه وسلم - لم يكن مدعواً، وإنما كان تابعاً فلا بد من استئذان الداعي، لأنه أدرى الناس بحاله وبكمية طعامه، ولا حرج عليه، لكن لما كان تابعاً للمصطفى المختار - صلى الله عليه وسلم - رأى أبو شعيب أنه يأذن له إذ كيف يرجع رجلاً جاء تابعاً - صلى الله عليه وسلم - وفى ذلك درس بليغ يفيد الأمة كلها، حيث إن كل من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله تابع من الأمة يقتضى التكريم والإعانة، فالله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، والمسلم أخو المسلم وللاخوة مقتضى، إذ ليس مقتضاها كلاماً وإنما عمل كما كان مقتضى حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يصنع له المحب أبو شعيب طعاماً.

ما تستوي حبة العنب وعنقوده فالحبة مفرد والعنقود جمع، والحبة لبنة والعنقود صرح، والحبة جندي والعنقود جيش، رزقنا الله العناقيد، وطوق بنعيمه كل جيد ما تستوي القلة والكثرة، والإسلام يدعو إلى الكثرة لا إلى القلة، بشرط أن تكون حلالاً، لا حراماً، ولم لا أذكر هذا في سياق صحابية هي أم صبيح بن سعيد النجاشي المدني، الذي بلغ عمره مائة و اثنتين وخمسين، قال سمعت أُمِّي تقول: كان اسمها عنبة، فسمّاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنقودة ذكره بن الأثير في أسد الغابة (٧-١٩٧)، وكانت لعائشة جارية اسمها عنقودة.

وروى أن رجلاً كان اسمه (قليلاً) فسماه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (كثيراً).

ومن دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - (اللهم زدنا ولا تنقصنا) والمتتبع لمثل هذا يقف على الكثير منه.

والعلماء يقولوا في تفسير قول الله تعالى : ((إنا أعطيناك الكوثر))، أى الكثير.

ومن هذا الكثير النهر المعروف، لكن كثيراً من الناس توقف عند النهر، فمتى ذكر الكوثر فلا كلام إلا عن النهر العذب الندى، الذى ماؤه أبيض من الفضة، وأطيب من المسك، وأكوابه تزيد عن عدد النجوم، وهو حوضه الشريف - صلى الله عليه وسلم - تسقى منه أمته، ويدفع عنه أناس قال فيهم: أمتي أمتي، فنودي: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، أى هؤلاء من أمتك شكلاً، لكنهم أفسدوا، وابتدعوا، وأحدثوا فى دينك ما ليس منه.

أما أن يفقه الناس أن الكوثر: فوعل، ومعناه الكثرة الكاثرة، وما أكثر ما أعطى الله - عز وجل - رسوله - صلى الله عليه وسلم - وقد قال له ((ولسوف يعطيك ربك فترضى)) أعطاه شرف النبوة، والرسالة

وكل نبي كان يبعث إلى قومه خاصة، وهو - صلى الله عليه وسلم - قد بعثه الله تعالى إلى الناس كافة، وألف له القلوب، ونصره بالريح، وبالرعب، وآتاه جوامع الكلم و (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) وشرح له صدره ويسر له أمره، وأسرى به ليلاً، وعرج به إلى سدرة المنتهى، وألأن له الناس فما كان فظاً غليظ القلب، وآواه وأوى به وأوى له، وثبته، وأحل له الغنائم ما أحلها لنبي قبله وأحل له أزواجه، وخاصة بما شاء من عدد زوجات، ((وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين)) وآتاه الشفاعة وطوي له الأرض، وكثر بين يديه الطعام والشراب، مسح ذات يوم على ظهر رجل من الصحابة فظل الطيب فى ظهره عمره، ينبعث منه كأنه ينبعث من منجم، لا ينضب، وما أكثر معجزاته - صلى الله عليه وسلم - وكراماته، وكونه - صلى الله عليه وسلم - يدعو قائلاً: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وكونه يسمى عنبة: عنقودة، ويسمى قليلاً: كثيراً، دليل على أن الكثرة مطلوبة، وأن طلبها ليس بدعة، ونحن نملك الكثير من الآليات التي تحقق لنا تلك الكثرة المنشودة على الوجه الحلال، فنحن نملك الكثرة العددية من الناس، ولو استثمرناها لجمعنا الكثير من الخيرات، لكنها كثرة معطلة، ونملك الكثير من المواهب، ولو أتحنا لها الفرص لحصدنا من ورائها ما لا يحصى من آيات الإبداع، ونملك الأرض ولدينا الماء الذى بات مشكلة، ولدينا قبل ذلك وبعده كتاب الله وسنة رسوله، وهما طوق النجاة، كما جاء فى حديث أبى هريرة ((تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا كتاب الله وسنتي)) وهما يدعوان إلى العمل والتقدم، وكل ما من شأنه رفاهية الحياة، التي تعين الناس على عبادة الله عز وجل وهم سعداء، وتلك غاية لم يتركها كثير من الناس الذين يريدون الحياة غمّاً ونكداً ودموعاً.

(٥٤) فاطمة بنت قيس

القرشية الفهرية، أخت الضحاك بن قيس، وكانت أكبر منه بعشر سنين، ذات عقل وشرف وكمال، طلقها أبو حفص بن المغيرة؛ فأمرها النبي - صلى الله عليه وسلم - أن تعتد في بيت عبد الله بن أم مكتوم، فلما وفّت عدتها خطبها رجلان هما معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم بن حذيفة: فأنت النبي - صلى الله عليه وسلم - تستشيريه، أيهما تختار فكانت المفاجأة، أن قال لها: تزوجي أسامة بن زيد، فإن كلا الرجلين لا يصلح، فمعاوية: صعلوك لا مال عنده، وأبوجهم بن حذيفة: رجل لا يضع العصا عن عاتقه، فسرّها العلماء على وجهين، إما أنه كثير السفر، وإما أنه يضرب النساء قالت فاطمة فلما قال تزوجي أسامة: تزوجته فإذا فيه الخير .

والدرس الكبير المستفاد من هذا الحديث الصحيح أن المستشار مؤتمن، وأن الأمانة تقتضي ذكر ما في المسئول عنه من عيب، ولا يعد ذلك من قبيل الغيبة التي نهى عنها الشرع، وعدّها من الكبائر، كما قال أهل العلم، ومنها إعمال العقل ومدارسة الأمر قبل الاستشارة التي صار الناس لا يعرفون الحكمة منها، وهي الأدب مع الله عز وجل بعد جدية الدراسة حتى لا يغتر الناس بعقولهم .

وقد شاع بين الناس اليوم موضوع الاستشارة دون بحث أو دراسة، يقول كثير من الذين فشلوا في حياتهم: لا ندري لماذا فشلنا مع أننا صلينا ركعتي الاستشارة ودعونا الله، وكأنهم يرون أن الاستشارة فيها الكفاية لإمضاء الزواج، وماداموا قد شعروا بارتياح أو رأوا رؤية طيبة فمعنى ذلك أن الله قد أراد فلم الفشل؟ والجواب: أن على المرء أن يحسن الاختيار وأن يسأل، ويبحث، ويتحرى، فإن وجد كل الأسباب مريحة ومطمئنة وتناسبه، عقد العزم على التمام.

وقبيل أن يتم يصلي ركعتين ويدعو، ولا منام ينتظر، ولا إحساس، فلا دليل على ذلك أبداً وإنما يمضي فيما عزم عليه، فإن كان فيه سوء، فاستجاب الله دعاءه حال بينه وبين هذا السوء بجند من جنوده، ((وما يعلم جنود ربك إلا هو)) وها هو ذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يقل لفاطمة بنت قيس: صلى يا فاطمة ركعتي استشارة وإنما قال لها: معاوية صعلوك، لا مال عنده، وأبو جهل رجل لا يضع العصي عن عاتقه، يعنى هذا لا يصلح، وذاك لا يصلح، ثم اختار لها - صلى الله عليه وسلم - من يصلح، وهو أسامة بن زيد .

وهذا أيضاً من الدروس المفيدة في حياتنا، درس أن تعود من عند مَنْ قصده بخير، لا محالة، تذهب إلى الرجل فيما إن يعطيك، وإما أن يدلك على من يعطيك، فهو كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - كحامل المسك إما أن تشتري منه، وإما أن تشم منه رائحة طيبة، أى الخير حاصل من أى طريق، شيء صعب في زماننا أن تقصد إنساناً في مشورة فإذا به يقول لك: صل استشارة، أو أن تقصده في شيء، وأنت متوسط الحال فتعود من عنده وقد ساء حالك بالكلية، حيث قضى على ما بقى عندك من أمل، وحطم ما بقى فيك من رجاء وزادك همّاً على همومك، وألماً على ألامك.

وصعب على النفس أن يتطور هذا فإذا بك تحجم عن لقاء الناس: لأن أحداً منهم لن ينفعك، وأن ما عندهم معروف، فأنت تتصرف من تلقاء نفسك خبط عشواء، إما أن تفوز، وإما أن تفشل، والأصعب من هذا كله أنك أن فشلت قالوا لك إنك أنت السبب إذ لم تستشرهم، ولم تخاطبهم فإنك لو كنت أتيتهم لدلوك على الخير، ولا أنقذك من الويلات، والله عز وجل يعلم أنهم كاذبون وما قالوا لك الذى قالوا إلا ليزيدوا من حسرتك فلو أنك فعلت لما فعلوا من أجلك شيئاً !

(٥٥) جليبيب بين المقدمات والنتائج

صحابي، من الأنصار، كان قصيراً دميماً، أنكحه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جارية من الأنصار وكان أبويها كرها ذلك فقالت الجارية قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣٦) الأحزاب: ٣٦

وقالت: رضيت وسلمت لما يرضى لي به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا لها - صلى الله عليه وسلم - فقال: ((اللهم اصيب عليهما الخير صبا، ولا تجعل عيشها كدًا)) فكانت من أكثر الأنصارى نفقة ومالاً

وعن أبي ברزة الأسلمي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان في مغزى له، فلما فرغ من القتال قال: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نفقد والله فلان وفلان قال: لكني أفقد جليبيبا، فوجدوه عند سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبر فقال: قتل سبعة ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه، حتى قالها مرتين أو ثلاثاً، ثم قال، بذراعيه فبسطهما، فوضع على ذراعي النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى حفر له، فما كان له سرير إلا ذراعي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى دفن،

دفن جليبيب لم يكن له سرير إلا ذراعي خير خلق الله محمد - صلى الله عليه وسلم -

وهذا يجلب إلينا قصه عبد الله ذي الجادين حين مات في تبوك، ونزل النبي - صلى الله عليه وسلم - حفرته وقال لأبي بكر وعمر: أدنيا مني أخاكما، ودفنه، ودعا له، فجاء ابن مسعود، وقال: ياليتني كنت صاحب هذه الحفرة وابن مسعود حين قال: ياليتني كنت صاحب هذه

الحفرة لم يكن بعيداً عن نفحتها، لقد كان بالفعل صاحب هذه الحفرة لولا الأجل، لكنه هاجر، وجاهد، وحضر المشاهد، وإنما أذكر ذلك لأن الناس حين يطلعون على شيء، مثل هذا يقولون: هنيئاً له، ياليتني كنت مكانه فهل يقول ذلك صادق، أم يقوله كاذب؟ كيف نتبين؟ والجواب عن هذا السؤال يفسره ويوضحه الحال، فإن كان المتمنى ممن يطيع الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - كان صادقاً، وهو بالفعل على ذراعي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لولا مسافات الزمن، لكن يكفيه رضاه - صلى الله عليه وسلم - عنه أما إذا كان ذلك المتمنى من آكلي الربا؟ وشاهدي الزور، وقساة القلوب، والبخلاء ونحوهم فلا شك أنه كذاب، حين يقول: ياليتني مثل جليبيب .

وكذا المرأة التي تقرأ هذه الكلمات، وتقف عند دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنصارية الشابة ((اللهم اصيب عليها الخير صبا ولا تجعل عيشها كدًا))

فتقول: الله هنيئاً لها، ياليتني كنت مكانها، يمكن أن تكون صادقة ومن الجائز أن تكون كاذبة، صادقة لو فهمت سر هذا الدعاء بأنه الالتزام الحقيقي لا الشكلي بدين الله، وأن هذه الأنصارية الشابة رضيت لنفسها ما رضىه النبي - صلى الله عليه وسلم - لها بغض النظر عن هيئة القادم لخطبتها، وهو موصوف بالقصر والدمامة بل أنني أقول إن ذلك ليس من غض النظر بل إنه من إعادة النظر، التي أسفرت عن رؤية جديدة.

فإذا القصير لما بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أطول رجل، وإذا الدميم لما بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أجمل رجل في الوجود، وهذا معنى جليل من معاني حب محمد - صلى الله عليه وسلم - والدليل على هذا أن ثمامة بن أثال لما أسلم قال للنبي -

صلى الله عليه وسلم - قد كان وجهك أبغض الوجوه إليّ فصار أحب الوجوه كلها إليّ، وكان بلدك أبغض البلاد إليّ فصار أحب البلاد إليّ، وكان دينك أبغض الدين إليّ، فصار أحب الدين إلى قلبي .

إن الناس يتمنون النهايات ولا ينظرون إلى البدايات التي هي مقدمات ترتبت عليها تلك النهايات، كالذي يرجو ما عند الغنى الآن، ولا ينظر إلى جهاده الذي كان، وكالذي يكاد يحرق حسده قلبه لما يرى من مكافأة كبيرة لعالم مثلاً ولو تفكر فيما بذله ذلك العالم من جهد لقال: قليلة والله !

(٥٦) حارثة بن النعمان

حارثة بن النعمان بن نَعَم بن زيد، الأنصاري الخزرجي من فضلاء الصحابة، شهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المشاهد كلها .

ذهب بصره، فاتخذ خيطاً من مصلاه إلى باب حجرته، ووضع عنده مكتلاً فيه تمر، فكان إذا جاء المسكين فسلم، أخذ من ذلك المكتل، ثم أخذ بطرف الخيط، حتى يناوله فكان أهله يقولون: نحن نكفيك، فقال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((مناولة المسكين تقي ميتة السوء))

ومن الدعاء المأثور: اللهم إني أسألك عيشة هنية، وميتة سوية، وليست الميتة السوية أن يموت المرء على سريرته، وحوله أهله وأحبابه دون أن يموت غرقاً، أو حرقاً، أو تردياً من برج، أو اصطداماً بسيارة أو قطار، أو تفحماً في طيارة، فإن الميتة السوية أن يموت المرء على الدين، وأن يكون آخر ما يقول وهو يودع الدنيا إلى لقاء الله - عز وجل - لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فمن كانت هذه آخر كلماته دخل الجنة، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه، وغيره.

والدليل على ذلك أن من الصحابة - رضوان الله عليهم من قتل غدرًا، وصلب، و كما حدث لخبيب بن عدي - رضى الله عنه - الذي صلبه مشركو مكة وقتلوه في التنعيم، وقال:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعي فانظر إلى قوله ((مسلماً)) أى أن المهم أن أموت مسلماً، ولكن كيف تكون هذه الميتة، لا يهمنى الشكل الذى أموت عليه، وقد طارت رقية عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق، رضى الله عنهما - فقال،

فزت ورب الكعبة، والقرآن الكريم يحدثنا عن قتل الأنبياء، وهم صفوة البشر، ((وقتلهم الأنبياء)) وقال تعالى في خاتمهم - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٤

فقال عز وجل ((مات أو قتل)) ولم يصف أحد القتل بأنه مجرد ضربة بسيف وغيره على مكان معين كالرقبة مثلاً، يؤدى إلى إزهاق الروح والوفاة، فقد رأينا حبيب بن زيد رضى الله عنه - يقطع عضواً عضواً حتى فارق الحياة وهو يقول أشهد أن محمداً رسول الله، فإذا قال له مسيلمة الكذاب: وتشهد أنى رسول الله قال: لا أسمع ومات على ذلك، أليست هذه ميتة سوية؟ ما يفعل المرء بميتة سوية على المعنى الشائع أى على سريرته، ووسط أهله وأحبائه، وبعدها النار، إن الميتة السوية ميتة يكون الانتقال بعدها إلى جنات وعيون.

مات حمزة - رضى الله عنه - شهيداً يوم أحد، ومثل به المشركون، وهو سيد الشهداء، ومات جعفر بن أبى طالب فى مؤتة، وقد قطعت ذراعه، ومعروف أنه الطيار؛ لأن الله عز وجل - أبدله عنهما جناحين يطير بهما فى الجنة .

وقد تكون الحياة سوية لهذا المعنى، فى مسكن متواضع ولقمة رابسة، وفرش أكثر من متواضع، لكنها حياة ناعمة، لأن كل مافيها حلال، ولا يغر صاحبها ما يراه من ترف الأغنياء واتساع بيوتهم، ونعمة فراشهم، وتقلبهم فى صنوف الخيرات، ولكن الفرق بين الحياة والموت أن فى الحياة اتساعاً للتغيير وطلب الغنى، أما الموت فليأتى كما يهوى، المهم أن الميت فى النار لن يهوى فلا خير فى ميتة على الفراش وسط الأحبة وبعدها النار، ويا مرحباً بأي ميتة بعدها الجنة ومن سبل الوصول إليها مناولة المسكين.

(٥٧) حبيب بن زيد بن عاصم

حبيب بن زيد بن عاصم بن كعب بن عمرو بن عوف الأنصارى الخزرجى، من حضر العقبة مع أخيه عبد الله بن زيد .
أمه: نسيبة بنت كعب، أم عمارة .

ذهب إلى مسيلمة الكذاب، فكان يقول له أتشهد ألا إله إلا الله فيقول: نعم

فيقول الكذاب: وتشهد أنى رسول الله؟

فيقول: لا أسمع، فيقطع منه عضواً، حتى قطعه عضواً عضواً، ولقي الله شهيداً رضى الله عنه.

إن قطع الأعضاء عضواً عضواً فى التصور أو المشاهدة الحقيقية أمر صعب، قد يغمض المتصور أو المشاهد عينيه لهول ما يرى، لكن المقطوع هل يشعر بما يشعر به المتصور، أو المشاهد؟

أعتقد أن هناك فرقاً، فالذي تقطع أعضاؤه فى الله، إنما يشعر بزيادة لا نقص، وبمعالجة لا إفساد، وبمواساة لا جرح، والدماء التى تسيل عند قطع أعضائه ما هي إلا لون، لونها لون الدم، لكنها بمثابة الأذى الذى يتخلص منه، والدليل على ذلك أن عثمان بن مظعون - رضى الله عنه - حين تخلص من جوار الوليد وكان قد أجاره حين عاد إلى مكة من الحبشة إثر شائعة تقول: إن أهل مكة قد دخلوا فى دين الله زعم عثمان أن هذا حق. فقال: وما الداعي إلى الغربة، فلما عاد وجد الأمر على ما كان عليه، فدخل فى جوار الوليد، لكنه قال: كيف أكون فى جوار مشرك وإخواني من المسلمين يعذبون فى الله عز وجل؟

فذهب إلى الوليد، وشكر له جواره، وأخبره برغبته في التخلص من هذا الجوار، قال له: لا أحب إلا جوار ربى الذى آمنت به، وأعلن الوليد فى البيت الحرام أن عثمان بن مظعون قد خرج من جواره، وأحس عثمان بالراحة النفسية العظيمة حين تخلص من هذا الجوار، مع أن فيه حمايته من أذى المشركين فهم برغم الشرك يقدرّون الجوار، ويعرفون حرمة ويلتزمون بمقتضاه، ووجد عثمان حلقة للشعر فى حضان الكعبة، حيث التف الناس حول لبيد الشاعر فجلس إليهم، وقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت

فلما قال لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان: كذبت؛ فإن نعيم الجنة لا يزول.

وغضب الشاعر الفحل المعروف، كيف يقال له: كذبت فقال: يا

معشر قريش، متى أهين جليسكم؟

فانتفض أحد الحضور، وهب، وصفع عثمان على عينه

فاخضرت، وكان الوليد واقفاً يرى ذلك، فدنا من عثمان، وقال له: يا ابن

أخي، أما كان جوارى خيراً لك من هذا؟ فماذا قال له عثمان بن

مظعون؟

قال: - لا تشمت، فو الله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب

أختها فى الله.

لا يمكن أن تغيب هذه الكلمة عن هذا السياق. ولا يتأتى معناها

الصحيح من قبيل ما يمكن أن يقال فيه: إنه من باب التجلد للشامتين،

وإنما هو اليقين، بأن العين حين اخضرت من أثر تجمد الدم ما اخضرت

عن وجعة مريية أو ألم شديد، إن اللون لون وجع، لكن تحته من الله عز وجل سر، سر يجعل عثمان وحبيباً - رضى الله عنهما - فى سعادة لا شقاء، تتبين ذلك فى أبسط مقال هو الفرق بين جوع الصائم فى رمضان، وجوع من تأخر عنه فطوره نصف الساعة، الأول ماض سعيد والثاني ملتهب، يقول: أكاد أقع من الجوع يا ضياعي يا ويلتى، فالجوع فى الله منفوح بقوة من الله، والجوع الآخر ملهبة، وكذلك العذاب فى الله موفور الأجر مع أن الله يهونه، أما العذاب فى غيره فما أصبر صاحبه!

(٥٨) هَبَارُ بْنُ الْأَسْوَدِ

هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى وأمه فاختة بنت عامر بن فُرط القشيرية

هو الذى عرض لزينب بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى نفر من سفهاء قریش، حين أرسلها زوجها أبو العاص بن الربيع إلى المدينة فأهوى عليها هبار، وضرب هودجها، ونخس الراحلة، وكانت حاملاً فأسقطت؛ فأهدر النبى - صلى الله عليه وسلم - دمه، ثم أسلم، فحسن إسلامه، وقد قبل النبى - صلى الله عليه وسلم - إسلامه واعتذاره، وكان فى نفوس الصحابة شيء منه لما فعله فى بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فشكا ذلك إليه، فقال له: سب من سبك، فانتهى الناس عن سبه .

وقد ورد أنه حين اعتذر للنبى - صلى الله عليه وسلم - قال له: قد عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام، والإسلام يجب ما قبله.

إن فرحة النبى - صلى الله عليه وسلم - بإسلام الرجل من الفرح المشروع، والفرح المشروع ينسى الحزن على ما فات، والانتقام ممن كان السبب فيه - فرح مشروع؛ لأن الله عز وجل يقول ((قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا)) وإسلام هبار بن الأسود وغيره من فضل الله عز وجل ألا ترى إلى قوله عز من قائل ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢١ ﴾

ولله در ابن حجر حيث قال فى فتح الباري إذا سمع المسلم بإسلام إنسان وجب عليه حبه، فإن لم ير نفسه قد أحبه فليراجع نفسه، والحب فى هذا الدين مقتضى، وليس بهوى، ومن مقتضاه أن الإسلام - كما قال - صلى الله عليه وسلم يجب ما قبله، فلا يزعم أحد أن الإسلام

يجب ما قبله لكن الإنسان لا يجب لأخيه ما قبل إسلامه بدليل أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يقل لهبار بن الأسود، أسلمت ما أسلمت، فهذا لنفسك ومستقبلك وآخرتك، أما أنا فولى دم، وحق ابنتي لن يضيع، كما يقول الناس اليوم، إنما قبل منه؛ لأنه جاء مسلماً، كما قبل من كعب حين جاءه مسلماً وأنشده رائعته الباقية

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

وكان قد هجاه قبل إسلامه، وكما قبل من وحشي الذى قتل عمه حمزة - رضى الله عنه - لما جاء مسلماً إنها الصفحة الجديدة البيضاء بحق، صفحة الدين فلا حساب لما كان قبلها وتلك فكرة أن لنا أن نستثمرها خصوصاً مع الذين يعلنون توبتهم ورغبتهم فى الإصلاح والإصلاح، وسداد ما عليهم أو تسويته حتى يعودوا مواطنين صالحين، وكذلك مع الأبناء والزوجات والأزواج الذين يقبلون تائبين نادمين غاية ما هنالك أن يأخذ المرء حذره ممن خدعه قبل، أو يراجع نفسه، فقد يكون هو السبب فى انحراف هؤلاء، فإن المسلم أخو المسلم، ومع ذلك أمر الله عز وجل بكتابة الدين بين الإخوة؛ فقال عز وجل - يأيتها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ((فإن لم يكتب مسلم دينه فلا يلومن إلا نفسه، وإن كان الأمر للنذب كما قال العلماء، فإن أكل مال أحد، وجاءه تائباً فليقبل منه، فإن عاد وأراد أن يقرضه جديداً فليكتب حتى لا يلدغ من جحر مرتين، ويبقى بعد ذلك الود بين الإخوة، ولا يناقضه وينافيه الأخذ بأسباب السلامة والاطمئنان إلى صون الحقوق أما أن نفرط فى الشرع تحت اسم الإخوة والثقة ويحدث بعد ذلك مالا يحمد فهذا من عند أنفسنا.

أصيل بن عبد الله الغفارى هاجر بعد الناس، فسألته عائشة - رضي الله عنها - كيف تركت مكة؟ فقال تركتها وقد أخصب جنابها، وابيضت بطحاؤها وأغدق إذخرها، وأسلم ثمامها، وأمشر سلمها؛ فقال: له - صلى الله عليه وسلم: كفى يا أصيل دع القلوب تقر.

قال السهيلي: فإذا عيناه - صلى الله عليه وسلم - تذر فان أغدق إذخرها: صارت له أغصان، والإذخر: نبات وأسلم ثمامها: أى صار الثمام (نبات) له خوص وأمشر سلمها: أى أورق وأخضر.

صورة وطن عزيز، صارت نباتاته مخضرة خصيبة وهو إن لم يثمر نباته، وتخضر أوراقه عزيز، فكيف وقد أخصب، وأورق، واخضر!

وقد ثبت من حديث ابن عمر أنه - صلى الله عليه وسلم - حين ودع مكة مهاجراً خاطبها فقال: إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إلى نفسي ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت أبداً .

والله عز وجل يقول ﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ محمد: ١٣

الوطن فى كتاب الله عز وجل له حديث ذو أبعاد، من أهمها أن الخروج منه صعب على كل مواطن، بدليل قوله - تعالى - ((وقال الذين كفروا لرسلمهم لنخرجكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا قال أولو كنا كارهين))

وهكذا قال شعيب - عليه السلام - حين قال الذين استكبروا من قومه: فى قوله - تعالى - ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ

يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيَّتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَؤُكَ كَارِهِينَ﴾ (٨٨)

الأعراف: ٨٨

وحين نزل الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأول مرة ودخل بيته قائلاً، زملونى، زملونى، فلما ذهب عنه الروح حكى لخديجة - رضى الله عنها - ما كان وقال لها: خشيت على نفسي يا خديجة. وبثت فيه الأمن وأقسمت أن الله - لن يخزيه؛ لأنه يطعم الجائع، ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الحق، ويصل الرحم، ثم ذهبت إلى ورقة بن نوفل، الذى بشره بأنه النبى الخاتم، وأخبره بأن قومه سوف يكذبونه، وسوف يؤذونه، وسوف يخرجونه من مكة، فكان أن قال - صلى الله عليه وسلم - كما روى البخاري وغيره (أو مخرجي هم)؟ ما قال (أو مكذبى هم)؟ أو قال أو مخزي هم؟ وإنما علق على الإخراج، فكأنه من أول الأمر على استعداد ليواجه تكذيبهم، وآذاهم، لكنه استبعد الإخراج، الذى هو عزيز على كل نفس لاسيما النفس السوية، نفس خير البشرية - صلى الله عليه وسلم - أشد الناس ارتباطاً وانتماء لوطنه.

والوطن فى الفكر الإسلامى أحكام، فالوطن يعنى القبلة. والوطن يعنى مطلع الهلال الذى يعرف به الحساب ويتوقف عليه بعض التكاليف كالصوم، ويعنى تقدير الزكاة فى الزروع والثمار، إن كانت الأرض تسقى بماء الراحة ففى الزكاة العشر، وإن كانت تسقى بماء التكلفة ففى الزكاة نصف العشر، والوطن يعنى الأعراف غير المنكرة والفاصلة، والشرع يعتبرها، ويأخذ بها، والوطن يعنى الانتقال إن دعت الضرورة إليه، وكان السفر وعندئذ يجوز للمسافر المنتقل عنه مسافة معينة أن يقصر من الصلاة، وأن يفطر فى رمضان، وإذا انقطع عنه الإنسان، ولم يكن معه ما يكفيه كي يعود إليه استحق من الزكاة وغيرها ما يبلغه غايته، ويعنى حق مواطنيه فى الإقامة فيه دون إضرار ولا أذى

حتى ولو عبدوا غير الله - عز وجل - قال تعالى ((فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم))، ويكفي المواطنة تقديراً واحتراماً أن الله - عز وجل - نسب الوطن إلى ساكنيه، فقال: ((حتى إذا أتوا على وادي النمل)) فإلى جانب وادي النيل، ووادي النطرون، هناك في كتاب الله عز وجل وادي النمل هكذا سماه، ونسبه إلى النمل لما كان النمل سكانه وعمارة الأوطان من الإيمان، بل هي مقصد كريم من مقاصد الشريعة، والانتماء إليه يعنى نصرته و تعلق القلب به وإن تباعد بينه وبينه، فكم من غريب معلق، وكم من مواطن بعيد متقطع !

(٦٠) صخر بن وداعة الغامدى

ذكر أصحاب السير أن صخر بن وداعة الغامدى، وغامد بطن من الأزد، ليس له إلا حديث واحد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو: اللهم بارك لأمتي فى بكورها
وكان - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم أول النهار، وكان صخر بن وداعة رجلاً تاجراً، وكان إذا بعث تجاره بعثهم أول النهار، فأثرى وكثر ماله.

وقد روى حديثه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه

فهذا رجل ليس له إلا حديث واحد، عمل به؟ فكانت النتيجة أن صار ثرياً وكثر ماله، وكم فينا من يحفظ عشرات الألوف من الأحاديث، ولا نراه ثرياً، ولا ذا مال كثير، فضلاً عن بقية المعاني المرتبطة بعضها ببعض، ومنها الصلاح الذى هو بلا شك ضمن هذه الألوف المؤلفة من الأحاديث .

وأذكر فى هذا السياق أن شيخاً كبيراً من أهل العلم فى بغداد جاء أحد طلابه وبشره بأن فلاناً من تلاميذه حفظ صحيح البخاري، فكان تعليقه أن قال: لقد زادت نسخ البخاري نسخة ((يعنى أن هذا الشيخ ما سرّه أن يحفظ تلميذ له صحيح البخاري، كان يسره ويفرحه أن يبشر بفقّه صحيح البخاري، ويزيده أكثر وأكثر من هذا أن يبشر بأنه عمل بما فى صحيح البخاري، فقضية العمل هي القضية الأساس فى ضوء الفكر الإسلامى الرشيد لا قضية الحفظ الذى بلا شك مطلوب، فإن ذلك لا يعنى طرح الحفظ بالكلية، أو الغض من قيمته، وإنما يعنى أن ثمرته هي المرجوة، فإن كان حفظ ولا فهم كان الإحساس بالمرارة، وإن كان فهم ولا عمل كان الإحساس بالدمار، ونحن نعانى ذلك كله على مستوى سياسة التعليم فى البلاد، وعلى مستوى العموم عموم الأفراد إن الخطيب يصعد المنبر يوم الجمعة، وترى من التعليقات عليه أنه لم يأتى بجديد، فكل ما قال يحفظه الناس هم يريدون الجديد، فهل ترى ذلك من باب

أنهم حفظوا القديم وعملوا به، أم أنه من باب طلب المزيد من الجديد، لكي يحفظوه أيضاً فتتراكم عندهم المحفوظات دون عمل بمقتضاها، قديمها وجديدها! إن الاحتمال الثاني أقرب إلى الحق؛ لأن الواقع يشهد به، فالواقع فساد، خرج من محفظة الصلاح، لأن الصلاح صار قطعة غالية غير مستثمرة، كالقطعة من الذهب، التي أهملت في ركن من أركان البيت فلا تحلت بها امرأة، ولا بيعت، فاستثمر ثمنها في إصلاح الحال، والتوسعة على العيال، وكالأرض الخربة التي نمر عليها ليل نهار، وما سعينا في إصلاحها، وزراعتها، أو إنشاء مشاريع عليها وكألوف الشقق السكنية على المدن الساحلية التي لا تفتح أبوابها إلا أسبوعاً واحداً أو أسبوعين في كل صيف وإلى جوارها عشرات الألوف من ساكني هذه المدن بلا مأوى، لم يؤجرها أصحابها لهؤلاء، ولم يبيعونها، ويحسنوا بها اقتصادهم، واقتصاد بلادهم، وما سوف يدفعونه إلى أخرى مفروشة أو إلى فنادق فارغة أقل بكثير من تلك الخسارة، وكالكتب المورثة عن والد أو جد من العلماء، تبقى دون انتفاع بها فلا يتصدق بها عليه، ولا بيعت بثمن معقول، ولا أهديت إلى مكتبة عامة، حتى التي أهديت إلى مكتبة عامة انتقلت من محبس إلى محبس دون أن يفيد منها طالب علم، نفائس بين أيدينا وثروات معطلة، نعرف أن لها قيمة، لكن هذه القيمة نظرية، ليست عملية .

وقد ورد في السنة المطهرة أن رجلاً دبر عبداً أي عزم على عتقه بعد وفاته، وكان هذا الرجل فقيراً، فعلم النبي - صلى الله عليه وسلم - بقصته، فباع له هذا العبد اشتراه حكيم بن حزام، وأعطى النبي - صلى الله عليه وسلم - ثمنه للرجل، وقال: أنفقه على نفسك وأهلك، وسدد دينك، فهلا انتفعنا بمثل ذلك الأثر الصحيح، فبعنا ما يصلح ثمنه لإصلاح أحوالنا وانتفعنا بما في رؤوسنا من نصوص ندخرها للتسليّة وإضاعة الوقت، وهي مصابيح تضيء لنا الطريق كي نبصر فلم نؤثر العمى على الهدى!

(٦١) صمصعة بن ناجية

جد الفرزدق، وشريف من أشراف بني تميم، ووجه من وجوه بني مجاشع، معروف بأنه كان في الجاهلية يفتدى المؤدات .

وقد مدحه الفرزدق بقوله :

وَجَدِّي الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ وَأَحْيَا الْوَيْدَ فَلَمْ يُؤَادِ

ضلت ناقتان له، فخرج في طلبها على جمل له، فوجد بيتاً في فضاء الأرض، فقصده، فوجد شيخاً، خاطبه وبينما هما يتخاطبان نادى الشيخ امرأة، وقالت ولدت ولدت، فسألها: ما ولدت؟ قالت جارية. قال: فادفنيها، فقال صمصعة: أنا أشتري منك. روحها فاشتراها بناقتيه، والبعير الذي تحته .

فلما ظهر الإسلام كان قد أحيا ثلاثمائة وستين مؤودة، كل مولودة بناقتين عشاوين وجمل.

حكى ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - حين عرض عليه الإسلام فأسلم، وقال: هل لي في ذلك من أجر؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - هذا باب من البر، لك أجره إذ من الله عليك بالإسلام.

أين صمصعة بن ناجية اليوم لكي يصون البنات من الوأد الجديد، حيث تخصصت بعض قرانا في بيع البنات للأثرياء القادمين من الخليج تحت اسم الزواج، الذي هو منكر في صورة معروف يدفع أحدهم دراهم معدودة، ويأخذ الضحية البريئة الطفلة مدة أسبوع، ثم يتركها مطلقة، ويعود إلى بلده، وقد امتص دمها، وانتهك عرضها، وهو يزعم أنه دخل بكلمة الله وخرج بكلمة الله، ولا متعة في الإسلام، أي أن زواج المتعة حرام باطل، ولم يكن ذات يوم حلالاً، ثم حرمه رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - كما يزعم كثير من الناس وإنما هو نكاح كان معروفاً في الجاهلية، وبقي مدة في الإسلام حتى حرم كما بقي الظهار طلاقاً حتى أنزل الله المجادلة وهكذا، لو كان مثل صعصعة بن ناجية بيننا لافتدى هؤلاء البنات من هذا الوأد الذي يورث الفواحش، فهو قتل للسوية في النفوس البريئة والوأة الأول كان أرحم برغم ما فيه من بشاعة قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، لأنه دفن جثة، وقلب صفحة، أما هذا الوأة الجديد فقتل روح وتنمية جثة، تنبت من سحت، وصادق مثل هذه الطفلة هو مهر بغي (زانية) حرام أكله، فالزواج باطل، لأنه محدد المدة، فما عسى أن يكون من هذه الفتاة بعد جرحها، وقد سهل الوأة عليها أن يتكرر ذلك إن وجدت .

مَنْ يَرِغِبُ فِيهَا بِرِغْمِ الْجَرَحِ الَّذِي كَانَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ يَرِغِبُ فِيهَا زَوْجَةً جَرِيمَةً وَجَدْتَ مِنْ يَرِغِبُ فِيهَا مَعْشُوقَةً جَرِيمَةً أَطْفَالَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ، وَفِي صُنَادِيقِ الْقِمَامَةِ، خَرَجْتَ مِنْ أَرْحَامِ مَلُوثَةٍ بِدَمِ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ وَضَعْفِ الدِّينِ، هِيَ قُنَابِلٌ يَنْتَظِرُ الْمَجْتَمِعَ الْأَمْنُ أَنْ تَتَدَلَّعَ فِي صُلْبِ أَرْكَانِهِ إِذَا شَرَرَهَا يَتَطَايَرُ مِنْ تَحْتِ الْجُسُورِ، وَمَنْ تَحْتَ إشاراتِ المَرُورِ وَمِنْ مَحَطَّاتِ السَّكَةِ الْحَدِيدِ، إِنْ لَمْ يَصْبِكَ بِحَرِيقِ أَصَابِكَ وَأَوْلَادِكَ بِسُوءِ الْمَنْظَرِ، وَغَرَابَةِ الشَّكْلِ وَغَرِيبِ اللِّسَانِ وَالْحَرَكَاتِ، إِنْ مِثْلُ صَعْصُعَةَ بِنِ نَاجِيَةٍ مُوجُودٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَرْزُقْ قَلْبًا شَاعِرًا كَالَّذِي رَزَقَ جَدَّ الْفَرَزْدَقِ، وَلَمْ يَرْزُقْ عَقْلًا كَالَّذِي رَزَقَ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ ﴿ إِنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٣٢)

لكن أمثال صعصعة في زماننا لا يحفظون هذه الآية وإنما يحفظون ﴿ قَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٥٨)

ولا يحفظون قول النبي - صلى الله عليه وسلم - ((في كل ذات كبد رطبة صدقة)) إنما يحفظون قوله ((اللهم اغفر للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة واحدة))

اللهم آمين إن كانت حجة الإسلام التي هي مرة واحدة في العمر، ويبقى بعدها انتشارال النفوس الضائعة، فهو أولى ألف مرة من تكرار الحج والعمرة !

(٦٢) صَوَابُ وَإِطْعَامُ الْيَتِيمِ

بالصاد والهمزة المكتوبة على واو، بعدها ألف، ثم باء

كل ما يعرف من اسم، ولقب، وكنية، وأصل، وفعل رجل من الصحابة اسمه ((صَوَاب)) من أبوه، من أية قبيلة، ومتى قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - ومتى أسلم؟ كل ذلك بلا إجابة غير معروف. إنما ورد فيه هذا الاسم، وسطر واحد من سيرته، لكنه سطر يغنيك عن مجلدات، ورب كلمة تزن ألوف الصفحات، ورب ألوف من الصفحات لا تعدل كلمة تصيب النفس فتحيبها مثلما يحي الغيث موات الأرض، فما هذا السطر؟ قال محرز بن أبي يعقوب كما ذكر بن الأثير في أسد الغابة (٣٧-٣): كان ههنا رجل من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يقال له صَوَاب: لا يضيع خوانه إلا دعا يتيماً أو يتيمين).

انتهى السطر، والخوان: مائدة الطعام، يعني أن صَوَاباً هذا رضى الله عنه لم يأكل أكلة إلا إذا خرج، ودعا إليها يتيماً أو يتيمين فأكرم به من مكرم اليتيم، وأعظم بها من عادة كفيلة بأن تجعل صاحبها نجماً من النجوم الظاهرة وإن كان مجهول النسب والتاريخ الطويل.

وقول محرز بن أبي يعقوب: كان ههنا أى فى البصرة، فصَوَاب - رضى الله عنه - سكن البصرة، تستطيع أن تقول فى ترجمته: صَوَاب رجل من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سكن البصرة، وما أكل طعاماً إلا وفى صحبته يتيم أو يتيمان، فماداً تبتغى أكثر من ذلك !

إن بعض السير حين تطلع عليها لا يخرج بمثل هذه القيمة التي هي من أثر الإسلام، بل من أعلى وأغلي آثاره، فقد روى مسلم فى صحيحه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل عن خير ما فى الإسلام فأجاب بقوله إطعام الطعام، تقرأ الصفحات فى ضبط الاسم والكنى والأصل والمولد، والنشأة، والقرابة، والمصاهرة، والأولاد، والأحفاد والزواج، والطلاق، والحرفة، والحب، والبغض، وغير ذلك، وذكر المصادر التي تناقلته، وما توهمه بعضها من اسمه والصواب غيره وأنه

خلاف فلان الذى من بطن كذا، حتى تصل إلى وفاته فتجد فيها ثلاثة أقوال، هل مات سنة كذا أم سنة كذا أم سنة كذا، وقد يكون صاحب السيرة والترجمة شاعراً فإذا بمن ترجموا له يذكرون نماذج من شعره، لاتصل إلى مستوى الشعر الذى تعرفه، وهو القائل كذا، ومن جيد شعره كذا وقال فيه فلان إن فلانا أشعر منه، وليس هذا بالرأى الصحيح؛ فإن صاحبنا أشعر من مائة مثله إلى غير ذلك من الأمور التي تسود بها الصفحات البيض دون طائل يذكر من وراء ذلك، أما مثل صَوَاب - رضى الله عنه - فلا يلتفت إليه، وهو عند الله عظيم إذ أطعم اليتيم، وجاء بخير ما فى هذا الدين، ومن يتأمل الكتاب الكريم يجد أمة من الناس ذكرهم الله تعالى بمثل ما ذكر به صَوَاب، ومن ذلك قول الله تعالى فى إدريس - عليه السلام - ((وَإِذْ ذُكِّرُوا بِالْكِتَابِ فَأَدْرَسُوا إِنَّهُمْ كَانُوا صَادِقِينَ)) مريم: ٥٦

ومثل أم مريم

﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَقَبَّلَ مِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لِلْهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِرِزْقٍ مَن يَشَاءُ يَغْيِرْ حِسَابًا (٣٧)﴾ آل عمران: ٣٥ - ٣٧

ومثل والد الفتاتين ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَنَعْبُدَكَ وَأَنْ نَكُونَ مِنْ أُمَّةٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ تاجرتني ثماني حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين (٣٧) القصص: ٢٧

ومثل الذي مر على قرية وهى خاوية على عروشها، ما قال سوى جملتين: أنى يحي هذه الله بعد موتها، وبعد بعثه قال وقد أراه الله ((أعلم أن الله على كل شيء قدير)) أشخاص ومعان فهلاً أفدنا من ذلك ما يغنيننا عن مطول الحكايات فما أكثر الكلام وما أقل الدروس المستفادة !

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٦	عباد بن بشر
٨	سلمى بنت قيس
١٠	أبو أمامة بن ثعلبة
١٢	سودة القرشية
١٤	سمك بن خرشة
١٧	ليلى بنت أبى حثمة
١٩	أبو شريح الخزاعي
٢١	أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط
٢٣	أبو عطية الوادعى
٢٥	أنيسة بنت عدى الأنصارية
٢٧	أبو مسلم المرادى
٣٠	بريرة مولاة عائشة - رضى الله عنها
٣٢	أبو مؤيبهة
٣٤	زنيرة والنجاح فى الاختبار
٣٦	أبو الهيثم التيهانى
٣٩	حبيبة بنت سهل
٤١	أبو اليسر: كعب بن عمرو
٤٣	حسانة المزنية
٤٥	فاتك
٤٧	الرُبَيْع بنت النضر
٤٩	قيس بن سلع

الصفحة	الموضوع
٥١	خبيب بن عدى
٥٣	أم حكيم بنت الحارث
٥٥	عاقل بن البكير
٥٨	زينب امرأة بن مسعود
٦٠	أبونقادة الأسدى
٦٢	أم سنبلة الأسلمية
٦٤	زاهر بن حرام الأشجعى
٦٧	أم قيس بنت محسن
٦٩	عامر بن فهيرة
٧١	ضمضم بن قتادة
٧٤	عبد الله بن سعيد بن العاصي
٧٧	عروة القشيري
٧٩	عمرو بن عبد الله بن نهم الأسلمى
٨١	عويم بن ساعدة
٨٣	عبد الله بن ثابت الأنصاري
٨٥	فراس عم صفية بنت بحرة
٨٧	مالك بن نضلة
٨٩	مالك بن قيس بن خيثمة أبو خيثمة
٩١	عامر بن لقيط العامرى
٩٣	مالك بن الحويرث
٩٥	عباد بن شرحبيل

الصفحة	الموضوع
٩٧	عبدالله بن عبدالله ابن أبى سنول
٩٩	عبدالله بن هشام
١٠١	عبدالرحمن بن سمرة
١٠٣	عثمة أبو إبراهيم الجهنى
١٠٥	حضرى بن عامر
١٠٧	ربيعة بن رواء العنسى
١٠٩	الطفيل بن عمرو الدوسى
١١١	عُتبة بن زيد
١١٣	أبو سعيد بن المعلى
١١٦	أبو شعيب الأنصارى
١١٨	عنقودة
١٢٠	فاطمة بنت قيس
١٢٢	جلبيب بين المقدمات والنتائج
١٢٥	حارثة بن النعمان
١٢٧	حبیب بن زيد بن عاصم
١٣٠	هَبَّار بن الأسود
١٣٢	أصيل الغفارى
١٣٥	صخر بن وداعة الغامدى
١٣٧	صعصة بن ناجية
١٤٠	صواب وإطعام اليتيم